محمد كامل الخطيب

# مائة عام من العذاب



# المأساة السورية

## مائة عام من العذاب

محمد كامل الخطيب

منشورات 0021

بيروت 2011

## الفهرس

## الإهداء

إلى:

سعيد حورانية

عمر أميرالاي

أديب غنم

سعد الله ونوس

كنت أتمنى أن تكونوا حاضرين، مع آخرين، لتروا ما انتظرتموه وحلمتم به طويلاً.

## إضاءات

" لا يمكن تدمير الماضي، فهو يعاود الظهور بين حين وآخر، وأحد الأشياء التي تعاود الظهور خطة تدمير الماضي"

خورخي لويس بورخيس

"إليك شعباً ستون بالمئة منه يعتبرون أنفسهم زعماء، وعشرة بالمئة عباقرة، وخمسة بالمئة أنبياء، وثلاثة بالمئة آلهة.. إنهم شعب يعبد الله والشيطان والنار"

قالها شكري القوتلي لجمال عبد الناصر عند تسليمه سورية عام 1958

"....فإن الأمة والمرأة لا تغتفر لهما تلك اللحظة التي تفقدان فيها الحذر ويتمكن أول مغامر يمر بهما من أن ينتهكهما"

كارل ماركس

في الثامن عشر من برومير

"سيقال إني بابوي: أنا لست بشيء، فقد كنت محمدياً في مصر وسأصير كاثوليكياً هنا لخير الشعب. إني لا أؤمن بالأديان"

الجنرال نابليون بونابرت

"ما من شيء لن يقوم التاريخ بتفنيده"

تشيخوف

# مدخل

هذه الفصول الآتية: المأساة السورية: مائة عام من العذاب. كتبت تحت ضغط الأحداث المضطربة واللاهبة الراهنة في البلدان العربية وسورية خصوصاً عام 2011، على الرغم من أن التفكير فيها يجري بالنسبة لي منذ زمن بعيد. وربما لهذا كان بالإمكان أن أكتبها على شكل دراسة أكاديمية مثل الفصل الأول عن انتهاء دولة الخلافة العثمانية وسوء الفهم المتبادل بين العرب والأتراك، وما تبعه من محاولات بناء الدولة الحديثة في كل من تركيا والبلدان العربية وسورية تحديداً، حيث نجحت أتاتوركية تركيا، وأخفقت البلاد العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية والتجربة التركية في بناء دولتها المدنية الجديدة. لكنني آثرت الطريقة قريبة المتناول في هذه الظروف؛ طريقة المقال المبسط الموجه لعموم القراء، فقد بدت لي هي الطريقة المناسبة للوصول إلى عموم الناس والمشاركة في هذه الأيام السورية اللاهبة، بل وفي تحديد موقف من تاريخ المأساة السورية، كما أراها، عبر أو بعد عرض تاريخها.

موقفي واضح:

مع المواطنين السوريين ضد كل أشكال القهر والحرمان والاستبداد السياسي والاجتماعي والإنساني، ومهما كان لونها واسمها، وصفتها: دينية أم قومية أم عسكرية أم سياسية، التي يعيشونها منذ خمسين عاماً، أو تلك التي يحوم شبحها في الأفق.

بقيت نقطة:

عام 2006 أصدرت كتاباً بعنوان "وردة أم قنبلة: إعادة تكوين سورية" وخلاصة هذا الكتاب أن سورية مقبلة على إعادة تكوين، فإما أن تكون دولة مدنية ديمقراطية علمانية لجميع مواطنيها، وإما أن تكون قنبلة موقوتة.

آمل أن يعتبر هذا الكتاب تتمة للكتاب السابق، مع ملاحظة أن القنبلة انفجرت، أو بدأت في الانفجار على ما يبدو، وهو ما كنت أخافه، وربما هو ما يخافه أكثرنا على ما آمل، إلا أولئك الذين يريدون تحويل الوردة إلى قنبلة حقاً، غير مبالين بانفجارها الوشيك إذا ما استمروا على لامبالاتهم وطريقتهم في السلوك ومعالجة هذه المسألة ـ المأساة السورية المعقدة.

ما العمل إذن لنزع فتيل القنبلة؟

لا أعرف ـ بالضبط ـ ما العمل، مع العلم أن الحل نظرياً سهل ومعروف، وإن كان الأمر يبدو لي أحياناً مثل تراجيديا إغريقية: نرى الكارثة تحدث أمام أعيننا، وربما نسعى إليها، دون أن يستطيع أحد لها إيقافاً. وربما لهذا لم يبق لي إلا أن أردد مع ألبير كامو:

"وعرفت ما كنت أعرفه مرة أخرى"

لكن، ومرة أخرى:

إما أن تكون سورية دولة مدنية، ديمقراطية، علمانية، لجميع مواطنيها وحاملي هويتها "السورية" الشخصية، كأفراد أحرار،

هم حقاً مكونات الشعوب والدول الحقيقية الحديثة وليس كقوميات وطوائف وأديان، دولة تلتزم في بنائها وقوانينها وسلوكها ودستورها الشرعة العامة لحقوق الإنسان، فتكون بذلك وردة المنطقة الحقيقية، وإما أن تكون قنبلة فتنفجر مثل أي قنبلة. وعندها ستسبح الوردة في دمها ودموعها، وقد تمسي حطاماً وحلماً، أو قد تذبل على أفضل تقدير.

كلنا مسؤول عما سيحدث، ويظل التاريخ أفق احتمالات، وطرقاً يحددها من يسير فيها، فلا عتب ولا مسؤولية على أحد أو على "مجاهيل" أو "مؤامرات" إذن.

لا عتب ولا مسؤولية إلا على السوريين أنفسهم.

محمد كامل الخطيب

دمشق ـ أيلول ـ 2011

# - 1 -

# انتهاء دولة الخلافة الإسلامية

# أو

# سوء الفهم المتبادل بين العرب والأتراك

# 2011-1908

"ما هي رمانة.......... القلوب مليانة"

مثل شعبي عربي

حدث ويحدث في التاريخ كثيراً بين الشعوب، مثلما بين الأفراد، أن البشر يختلفون ويتصارعون ويتبادلون التهم وسوء الفهم دون أن يدركوا العوامل والأسباب الحقيقية والعميقة الكامنة، أو التي تتدسس في ثنايا مشكلاتهم وصراعاتهم وسوء فهمهم للقضايا المثارة أو المتنازع عليها. ذلك أن الأسباب الظاهرية، أو مجرى الأحداث اليومية والسياسية كثيراً ما تحجب أسس الخلاف الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، بل والجيوبوليتيكية أيضاً، مما يؤدي إلى ما يمكن تسميته بـ "سوء فهم متبادل" من قبل الأطراف المشاركة لأسس الصراع وأسبابه، بل ولتناسي هذه الأسباب، أو عدم رؤيتها أحياناً. إنها بحق "تيارات التاريخ العميقة اللاشخصية التي حملت الأشخاص والأحداث" كما يقول هوبزباوم عن الثورات وعصرها [1].

يمكن النظر إلى الخلاف، أو ما يمكن أن نسميه: "سوء الفهم المتبادل" للمشكلة بين العرب والأتراك (1908-2011) من هذه الزاوية. مع العلم أن بالإمكان اعتباره خلافاً تركياً - سورياً على التحديد، فسوريا الطبيعية كانت ومازالت ساحة الصراع الرئيسة لهذا الصراع منذ البداية، وساستها ومثقفوها كانوا القادة العرب

---

[1]- ايريك هوبزباوم عصر الثورة 1789-1748 ترجمة د فايز الصياغ- المنظمة العربية للترجمة – بيروت 2007 ص 79

عموماً[2] الذين خاضوا في المشكلة وتوتراتها التي ما زالت مستمرة. أما الشريف حسين وابنه فيصل فقد كانا لحظة عابرة في المشهد اقتضتها الظروف.

معروف أن الخلاف وسوء الفهم المتبادل هذا وصل إلى حد تبادل التهم ورمي وزر تخلف السلطنة بل وتمزيقها، ومن ثم سياسات الريبة والتوتير من قبل كل طرف على الآخر، وهذا هو المثال على سوء الفهم المتبادل الذي سببه التمسك بالظواهر مع تناسي العوامل العميقة التي أسست للاختلاف منذ إعلان الدستور 1908 أو عودة دستور 1876.

من هذا المنظار فإن العلاقات السياسية والمناظرات التاريخية والفكرية والدعاوية أو صورة الآخر لدى كل طرف من الطرفين خلال المئة عام المنصرمة تقدم مثالاً واضحاً لسوء الفهم الذي نتحدث عنه، أي طغيان الأحداث اليومية على الأسباب الحقيقية والعميقة للخلاف مما أدى إلى سوء فهم متبادل وتوترات وصور غير دقيقة لمشكلة حقيقية،مشكلة معلقة وظاهرة لكنها تكمن خلف أو تحت سيرورة الأحداث وخلالها، أو أنها-"هذه الأسباب - تشكل المنطق الداخلي الموجه لآلية وسيرورة الأحداث والتصورات والتوترات المتبادلة التي أسميناها: "سوء فهم متبادل" وعلى سبيل المثال الطريف فالعرب يقولون[3] إن أصل حجاب المرأة "تركي"

[2] - يجد هذا الرأي دعمه القوي في حقيقة أن فكرة القومية العربية ولدت وترعرعت في سورية الطبيعية،وفي أن التوتر الدائم خلال فترة المئة عام الأخيرة 1908_ 2011 كان توتراً سورياً- تركياً على وجه التحديد.

[3]- تقول نظيرة زين الدين، أحد رائدات رفع الحجاب العرب:" وكان الأتراك المسلمون من أنصار الحجاب، فمزقه المصلح الأكبر مصطفى كمال منذ بضع سنوات" كتاب نظيرة زين الدين، السفور والحجاب، 1928- بيروت.

بينما يقول الأتراك إن أصله "عربي" كما قال كمال أتاتورك 1881- 1938 للسيدة لطيفة أفندي، زوجته[4]. والحقيقة أن الحجاب من بقايا مجتمع بيزنطة،على ما يذكر مؤرخ الحضارة الرومانية ومتأملها ادوارد جيبون-1737 -1794 في كتابه (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها)

يكمن سوء الفهم المتبادل هذا بين العرب والأتراك، أو الأسباب الحقيقة للاتهامات والريب المتبادلة التي توجه النظرة إلى الآخر والأحداث عند كل طرف خلال الفترة موضوع البحث 1908-2011 في التاريخ وتطوراته، ويمكن للباحث أن يحدد الخلافات والاتهامات والريب المتبادلة حسب التحقيب التالي:

## 1. نظرة العرب إلى الخلاف ما بين 1908-1918 :

يرى العرب أنهم كانوا عنصراً هاماً في السلطنة وكانوا مخلصين لها وأنهم شاركوا في الثورة عام 1908، وكانوا مخلصين في الدعوة لاستمرار وتوطيد الرابطة العثمانية، وأنهم كانوا المشاركين الرئيسيين في إفشال "الثورة المضادة" عام 1910 والتي قام بها أنصار السلطان عبد الحميد وبالمقابل فإن الأتراك، وخصوصاً جمعية الاتحاد والترقي تحت سيطرة الثلاثي الترويكا التي قادت السلطنة إلى الهاوية "طلعت وأنور وجمال".

---

[4]- "تعيش زوجات الفلاحين وبناتهم بصورة مختلطة مع الرجال، الحريم والنقاب هي تقاليد منسوخة عن العرب" نقلاً عن كتاب إيبك تشالستلر، لطيفة خانم أفندي ومصطفى كمال أتاتورك. ص/154، ترجمة بكر صدقي، دار قدمس، دمشق- 2009

وتحديداً جمال قائد الجيش الرابع في بلاد الشام ووزير البحرية شرعوا في تطبيق سياسة محو العرب كعنصر أو كقومية حسب التعبير الحديث وتتريكهم والقضاء على اللغة العربية، وهي لغة عريقة في القدم وتختزن ثقافة إنسانية لا يمكن نكرانها. أضف إلى ذلك إنها لغة القرآن والدين الإسلامي، ويستدلون على ذلك بوقائع كثيرة منها الحادثة التي يرويها عبد الرحمن الشهبندر 1879-1940، وزير الخارجية في حكومة فيصل المنفصلة عن الأتراك عندما سئل في مجلة الهلال عام 1928 عن أهم حادث أثر في حياته فتذكر قصة الضابط السوري سليم الجزائري الذي أعدم على يد جمال باشا عام 1916. يقول الشهبندر[5] (وأعتذر عن طول الشاهد):

**"أما القطب الذي درنا حوله في السياسة الوطنية التي أتبعناها يومئذ فأساسه ما دونته جمعية الاتحاد والترقي في السطر الأول من يمينها المقدسة وهو خدمة الأمة العثمانية خدمة خالصة من غير تفريق بين عناصرها. وقد شغفنا بهذه الأخوة والمساواة شغفاً عجيباً حتى أن قائد أركان الحرب المرحوم سليم بك الجزائري وهو من أخلص إخواننا وأنفذهم لما بلغه أن جمعية في الأستانة تألفت عقب الانقلاب العثماني لخدمة العرب باسم الإخاء العربي وقف في حفلة في دمشق وامتشق حسامه وصاح بأعلى صوته "إننا نسمع بتأليف جمعية باسم الإخاء العربي، فكل ما تحدثه نفسه بالانضمام إليها ليس**

---

[5]. الدكتور عبد الرحمن الشهبندر – الأعمال الكاملة -الجزء الأول -المقالات ص 136-137- تحقيق وتقديم محمد كامل الخطيب – منشورات وزارة الثقافة – دمشق 1993.

**له إلا هذا السيف ". وهذا كان شعور العرب عامة في تلك الأيام.**

**لكن هذا الضابط وثلة من رفاقه أعدموا فيما بعد بتهمة خيانة الدولة كما سلف. أما عن حملات القضاء على اللغة العربية فيضيف الشهبندر في مقالته نفسها:**

**" حدثت لي الحادثة الآتية التي أزالت من نفسي الشكوك لأنها كانت من مصدر رسمي، وهي أن موظفاً قضائياً كبيراً من أصدق رجالات العرب وهو المرحوم كامل بك الصلح نقلته الحكومة من مناستر إلى دمشق، فلما مرّ على الآستانة ليقابل وزير العدلية –" الحقانية " نجم الدين ملاّ بك ويتلقى منه التعليمات الجديدة قال له هذا:" إنك ذاهب الآن إلى رياسة محكمة الاستئناف في الشام، فاجعل المحاكمات من الآن فصاعداً بالتركية لأننا قررنا تتريك العناصر".**

وبإمكاننا أن نضيف حادثة أخرى من العراق عن محرر جريدة " طنين" في استنبول الذي اختارته "جمعية الاتحاد والترقي" ممثلاً لقضاء الديوانية في العراق في مجلس المبعوثان العثماني وعندما ذهب هذا النائب إلى ناخبيه استغرب أنهم لا يعرفون اللغة التركية، مع العلم أنه هو لم يكن يعرف اللغة العربية، أي لغة الناس الذين يمثلهم.

وأخيراً يرى العرب أن شهداء 6 أيار 1916 لم يكونوا مجرد سياسيين أو متمردين بقدر ما كانوا طلائع ثقافية فكرية عربية ولهذا أعدمهم جمال باشا.

**2. أصل الخلاف بين عامي 1908-1918 من وجهة نظر الأتراك:**

يرى الأتراك ومن يؤيدهم من العرب النافذين - آنذاك - أن الرابطة العثمانية هي التي كان يجب التمسك بها وتقديمها على كل انتماء مهما كانت الظروف والأحوال والمغريات، والحقيقة أن معظم العرب ولا سيما القطاعات الشعبية إنما كانوا يميلون إلى هذا الجانب، وحتى مؤتمر باريس الذي عقدته نخبة من مثقفي العرب عام 1913[6]، لم يطالب بالانفصال عن السلطنة بل طالب باللامركزية،وهو مفهوم قريب من مفهوم إداري يقابل "الإدارة المحلية" المتداول اليوم ضمن الدول الموحدة. أضف إلى ذلك أن كثيراً من العرب كانوا يدعمون الأتراك حتى في مسألة اعتبار اللغة التركية، لا العربية هي اللغة الأولى في السلطنة مثل سليمان البستاني 1856-1925 "النائب والوزير العربي في هذه الفترة" والذي عبر عن رأيه هذا في كتابه "عبرة وذكرى 1908" وهو كتاب منهاجي في طرق ووسائل إصلاح السلطنة العثمانية الموحدة وقد صدر بتأثير ثورة 1908 ضد استبداد السلطان عبد الحميد.

كما أن مثقفين عرباً بارزين ومنهم شكيب أرسلان ( 1870 - 1946 ) الذي هاجم مؤتمر باريس عام 1913 [7] ومحمد كرد علي (1876-1953 ) الذي حرر جريدة تدعو للسلطنة العثمانية في دمشق " الشرق- 1916 " وناهض الحركة العربية، كانوا

---

[6] - كتاب المؤتمر العربي الأول المنعقد: في باريس.القاهرة 1913 طبعة ثانية. تقديم وتحقيق محمد كامل الخطيب – دمشق 1996 مع ملاحظة أن هذا المؤتمر يمكن اعتباره مؤتمراً سورياً من جهة ممثليه وموضوعاته المثارة.

[7] - كتاب شكيب أرسلان المعني والمنسي تقريباً هو :إلى العرب : بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية. مطبعة العدل. دار السعادة 1332هـ - 1913 م .حديثاً ومن وجهة النظر التركية حول هذه الفترة يمكن مراجعة الكتاب التالي : حسن قايالي : الحركة القومية العربية بعيون عثمانية 1908-1918. ت: فاضل جتكر دار قدمس – دمشق 2003

أمثلة، من قبل العرب على شدة تمسك العرب بالرابطة العثمانية، وخشيتهم من تمزق هذه الرابطة ووقوع البلاد العربية تحت السيطرة الانجليزية والفرنسية حسب اتفاقيات" سايكس- بيكو- سازانوف 1916" التي نصت على تقاسم السلطنة العثمانية بين روسيا وفرنسا وبريطانيا وأطراف أوروبية أخرى ذات نصيب أقل مثل إيطاليا واليونان وبلغاريا وهذا ما ورد في نص المداولات و الاتفاقيات التي نشرها البلاشفة الروس بعد ثورتهم عام 1917 كما هو معروف.

يضيف أنصار هذا الرأي إلى حججهم كذلك أن العرب كانوا مشاركين أساسيين في حكم السلطنة، ويستدلون على ذلك بعدد ونوعية الموظفين في الحكومة والجيش العثماني [8]. وفي دائرة السلطان عبد الحميد الخاصة أمثال أبي الهدى الصيادي وعزت باشا العابد والأخوان ملحمة وغيرهم.

من جملة مآخذ الترك على العرب أيضاً أنهم خانوهم واتصلوا بالأوروبيين، وخصوصاً الفرنسيين ودليلهم في ذلك الكتاب الذي أصدره جمال باشا عن محاكمات الديوان العرفي في عاليه وهو ما أعدم على أساسه شهداء 6 أيار [9].

---

[8] - كمثال على ذلك يمكن مراجعة الكتاب التالي وهو يحتوي على قوائم مفصّلة للعرب المشاركين في الجيش والإدارة العثمانية : عبد العزيز العظمة – مرآة الشام تحقيق نجدة صفوة منشورات رياض نجيب الريس لندن 1987.على أن من أجود الكتب التي تناولت هذه الفترة عربياً1908-1918. ربما كان كتاب زين نور الدين زين- نشوء القومية العربية- مع دراسة تاريخية للعلاقات العربية التركية، دار النهار بيروت 1968 إضافة إلى المرجع الكلاسيكي " يقظة العرب" لجورج انطونيوس.

[9] - عنوان الكتاب هو إيضاحات على المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه. نشر هذه الإيضاحات من قبل قائد العام للجيش الرابع. درّ عليه مطبعة الطنين 1334 هـ -1916 م. في هذا الكتاب مراسلات واجتماعات يقول الكتاب إنها

أخيراً يرى الأتراك أن العرب كانوا يسعون إلى نقل الخلافة إليهم وبعضهم سمى أبا الهدى الصيادي كطامح، **وهذا ما أعلنه بصراحة السلطان عبد الحميد وحذّر من خطورته إذ كتب في مذكراته :**

**- إذا أضعنا استنبول أضعنا معها الخلافة. ستؤول الخلافة حتما إلى العرب -**

## 3. الخلاف وسوء الفهم في الفترة ما بين 1918-1945 من وجهة نظر العرب :

يرى العرب أن الأتراك في أوائل هذه الفترة تنازلوا عن المقاطعات العربية في مؤتمر لوزان 1923 للانكليز والفرنسيين في حين كان يجب أن يتنازلوا عنها أو يسلموها لأهلها حسب مبدأ "حق الشعوب في تقرير مصيرها" وهو المبدأ الذي نادى به كل من البلاشفة الروس والرئيس الأمريكي آنذاك ودرو ويلسون "مبادئ ويلسون" وأن الأتراك،فيما بعد أداروا ظهرهم لكل ما هو عربي بل وإسلامي فتخلوا عن الخلافة 1924 وهي رابطة المسلمين الأولى. ثم تخلوا عن الأبجدية العربية في كتابة لغتهم عام 1928 فتخلوا بذلك عن رابطة ثقافية مهمة مثلما تخلوا عن رابطة الدين عبر إلغاء الخلافة والعلمنة.

---

جرت مع قناصل أعداء الدولة في بيروت.ويكرر جمال باشا اتهاماته هذه في مذكراته فيما بعد.

أضف إلى ذلك مطامع الأتراك وسعيهم للاستيلاء على الموصل في العشرينيات من القرن العشرين ثم استيلاءهم على لواء اسكندرون السوري أواخر ثلاثينيات القرن إياه. وعلى الرغم من ذلك، بقي الليبراليون واليساريون العرب يبدون إعجابهم بالنموذج الأتاتوركي – الجمهوري التركي[10]. تماماً مثلما يدعو اليوم المفكر السوري صادق جلال العظم إلى اقتداء النموذج السياسي التركي الحالي، والجديد اليوم أن الإسلاميين العرب يفعلون الشيء نفسه من جهة الإعجاب بالنموذج التركي الحالي.

## 4. الخلاف وسوء الفهم بين العرب والأتراك ما بين 1918-1945 من وجهة نظر الأتراك:

يرى الأتراك أن العرب أداروا ظهرهم للأتراك وارتبطوا بالغرب-العدو المشترك- لا سيما بعد وقوعهم تحت سيطرته بعد أن طعنوا أخوتهم في الظهر عبر ثورة الشريف حسين ( 1916-1918 ) فتحالفوا مع الانكليز والفرنسيين لتقويض السلطنة، مع أن الانكليز والفرنسيين ما لبثوا أن احتلوا البلاد العربية، بينما عجز الروس والحلفاء عن احتلال ما تبقى من السلطنة العثمانية بفضل نضال الشعب التركي ومقاومته بقيادة أتاتورك، ويقول الأتراك بأنهم حذروا العرب مراراً من مغبة تعاونهم مع

[10]- من الأمثلة على هذا الإعجاب الشديد كتاب: تركيا الحديثة لمؤلفه فؤاد الشمالي, بيروت 1939 وفؤاد الشمالي (1894-1939 )هو أول أمين عام للحزب الشيوعي السوري-اللبناني كذلك تمتلئ صحافة ومجلات هذه الفترة الليبرالية واليسارية خصوصاً في مصر وسوريا بالمقالات المادحة لتجربة الجمهورية التركية الوليدة وشخصية كمال أتاتورك.على حين بقي الاتجاه الإسلامي مصراً على إدانة ما يحدث في تركيا من علمانية و مخالفة للإسلام في رأيهم، أما عن العلاقات بين العرب والأتراك قديماً قبل الفترة الحديثة (1908 - 2011 ), فيمكن مراجعة 1-عبد الكريم غرايبة – العرب والأتراك، مطبعة جامعة دمشق 1961- 2-عبد الكريم رافق – العرب والعثمانيون (1516-1916 ) دمشق 1974

الأوروبيين، ومن نواياهم ولا سيما بعد أن نشر البلاشفة الروس نصوص اتفاقيات " سايكس – بيكو- سازانوف" وقيام الأتراك بكشفها للعرب وإرسالها لهم ودعوتهم العرب للعودة إلى التحالف وإنقاذ السلطنة والأمة ومحاربة الأوروبيين، ويستدلون على ذلك بمراسلات جمال باشا وجمال باشا الصغير مع فيصل [11] في العقبة، لكن العرب ظل سادرين في غيهم.

هنا من المفيد إيراد حادثة طريفة يوردها الأديب المصري يحيى حقي (1905-1993 )عن ذكرياته عندما كان في اسطنبول قنصلاً لدولته خلال ثلاثينيات القرن العشرين.

يقول يحيى حقي بأنه زار مرة بيت فلاح تركي في الأناضول وعندما عرف الفلاح التركي أن ضيفه عربي، خلع قميصه وأدار ظهره وقال للضيف "انظر في ظهري آثار خناجر العرب".

## 5. سوء الفهم المتبادل بين العرب والأتراك ما بين 1945-2011 من وجهة نظر العرب:

يرى العرب أن تركيا عقب الحرب العالمية الثانية بدت هادئة ومستكينة تجاه العرب لأنها كانت وما تزال ضعيفة، لكن نواياها مشكوك فيها إذا ما استقوت، يعبر عن ذلك كاتب سوري بالكلام التالي:

---

[11]- يمكن مراجعة بعض تفصيلات هذا الموضوع الهام في الكتابين التاليين : 1- سليمان موسى الحركة العربية ( 1908--1924 ) دار نهار بيروت طبعة 3 عام 1986 ص 376 وما بعد. مع ملاحظة أن المؤلف متعاطف مع حركة الشريف حسين عموماً. 2- جهاد نصف قرن لسمو الأمير سعيد عبد القادر الجزائري – دمشق المطبعة العمومية – لا تاريخ "أوائل خمسينيات القرن العشرين"1951 على الأغلب.-تدوين: أنور الرفاعي.

**"ومع ذلك فإن الحدود بين سورية وتركيا يجب أن تراقب دوماً، لأن تركيا الضعيفة اليوم لا تتظاهر بالقوة والشدة تجاه سورية، ولكن من يقول لنا إنها لا تضمن الشر في مكامن نفسها ؟؟؟"** [12]

كما أن سير الأحداث من خلال حلف بغداد ومعاهدة الدفاع المشترك "الغربية" عن الشرق الأوسط خلال الخمسينيات من القرن العشرين، ومن ثم الحشود التركية على الحدود التركية - السورية لتهديد الاتجاه اليساري السوري آنذاك" 1957" آتت مصدقةً لتخوفات مراقب عام 1947 السوري. أضف إلى ذلك انضمام تركيا إلى الحلف الأطلسي "الناتو" والمعسكر الغربي عموماً وهو حلف ناهض التطلعات القومية العربية مثلما ناهض السوفييت كما هو معروف.

ولعل أهم قائمة للمآخذ العربية وغالبها يعاد ذكره هنا، على الأتراك وردت في كتاب بعنوان: "تركيا والسياسية العربية"[13] صدر في مصر - يناير عام -1954 وكتب مقدمة له الرئيس جمال عبد الناصر1918-1970 عنوانها "تركيا الشقيقة" مما يعطي الكتاب طابعاً رسمياً. وفي هذا الكتاب يعدد المؤلفون - لم تذكر أسماؤهم في الكتاب – قائمة مفصلة تقريباً بالاتهامات

---

[12]- منير الشريف – القضايا الاقتصادية الكبرى في سورية ولبنان – دمشق 1947 ص 21

[13] : عنوان الكتاب هو " تركيا والسياسة العربية ". من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء أتاتورك. سلسلة اخترنا لك رقم (10) وهي سلسلة سياسية رسمية مصرية. ويقول المؤرخ زين نور الدين زين في كتابه نشوء القومية العربية أن مؤلفي الكتاب هم أمين شاكر، سعيد العريان ومحمد مصطفى .أضف إلى ذلك كتاباً آخر صدر في السلسلة نفسها رقم \51\ بعنوان الأحداث العربية في تاريخها الحديث. تأليف طه شرف يعيد التهامات والشكوك نفسها تجاه الأتراك.

والريب العربية "التقليدية" ضد السياسة التركية تجاه المنطقة العربية، بل وضد السياسيات القومية و العلمانية للجمهورية التركية ذاتها.

يضيف العرب – اليوم 2011 إلى قائمة الاتهامات والريب ضد تركيا أن هذه الدولة "الشقيقة" حسب تعبير جمال عبد الناصر وخصوصاً في زمن حزب "العدالة والتنمية" بعد أن أغلق أمامها الفضاء الآسيوي – الطوراني الذي انكشف بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وهو فضاء ملأه الأمريكان، وبعد أن أغلق أمامها كذلك الباب الأوروبي نتيجة العنصرية والتعنت الأوروبيين، توجهت إلى الشرق الأوسط، أي إلى المنطقة العربية بعقلية قد تقارب عقلية السلطان الفاتح سليم ياووز- 1516، إن لم نقل عقلية الاتحاد والترقي، في وقت تعاني فيه هذه المنطقة من نقاط ضعف عديدة، وتخلخل جيوسياسي مما لا مجال للحديث عنه هنا.

بصريح العبارة يقول بعض العرب أن السياسة التركية الحالية تجاه المنطقة العربية،لا سيما سورية، هي سياسة طورانية قومية بجلباب عثماني إسلامي مريب. وأن حزب العدالة والتنمية هو حقاً حزب "عثماني جديد" كما يصفه كثيرون، وأن هذا الحزب الإسلامي – العثماني-التركي الجديد-القديم هو في حقيقته يشكل "إسلاميو الناتو"[14]. على حد توصيف الكاتبة أو الكاتب التركي "جهان طوغال".

---

[14]: جهان طوغال – إسلاميو الناتو- مجلة نيو لفت ريفيو(مجلة اليسار الجديد )عدد آذار – نيسان 2007 لندن وقد ترجم المقال إلى العربية فاضل جتكر.

يضيف العرب إلى حججهم الحالية كشواهد تدعم شكوكهم تجاه السياسة التركية الحالية ما ورد في كتاب أحمد داوود أوغلو، مهندس السياسة الخارجية التركية ومسؤولها الحالي "العمق الاستراتيجي" [15]من حديث عن المنطقة العربية واعتبارها – حرفياً ـ "حديقة خلفية" لتركيا مما يذكر العرب بأن أمريكا تقول عن منطقة "أمريكا اللاتينية" بأنها "حديقتها الخلفية" حسب مبدأ مونرو المعروف. وبالتالي فتركيا تريد أن تكون "امبريالية إقليمية" أو "امبريالية بالوكالة" على تقدير أفضل. ومحتوى أو رؤية كتاب أوغلو تدعم هذا الادعاء العربي. تأتي آخر حجج المرتابين العرب من تركيا بسبب تصريحات ونصائح المسؤولين الأتراك خلال الأحداث التي تشهدها المنطقة عام 2011، وخصوصاً حول سورية، وهي نصائح وتصريحات فسرت على أنها اهتمام مبالغ، إن لم نقل مشكوك فيه، وخاصة عندما بدت وكأنها تصدر من الباب العالي والصدر الأعظم إلى مقاطعة عثمانية أو إلى "والٍ محلي"، مما يضاعف الشكوك التاريخية العربية منذ عام 1910 حول النوايا الماضية والحالية والمستقبلية للأتراك في المنطقة العربية سواء أكانوا إسلاميين أم قوميين.

أضف إلى ذلك مشكلة المياه بين تركيا وكل من سورية والعراق، وعلاقة تركيا العسكرية و المميزة مع إسرائيل.

---

[15] : أحمد داوود أوغلو " العمق الاستراتيجي " موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية الطبعة العربية. ترجمة محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل. منشورات الدار العربية للعلوم – بيروت 2010 والطريف أن من يقرأ هذا الكتاب يعتقد أن الإسلام إنما بدأ مع ظهور الأتراك وسيطرة محمد الفاتح والاستيلاء على القسطنطينية . أما اللحظة العربية التأسيسية في تاريخ الإسلام، فليس لها وجود تقريباً.

## 6. سوء الفهم المتبادل بين العرب والأتراك في فترة 1945-2011 من وجهة نظر الأتراك :

يرى الأتراك أن العرب، خلال هذه الفترة، ظاهروا المعسكر السوفياتي أو الروسي، مع العلم أن الأتراك والسلطنة العثمانية نفسها، كانوا يرون خلال تاريخهم المديد، وخصوصاً خلال القرن التاسع عشر، أن الخطر الرئيس على السلطنة أو تركيا،إنما هو الخطر الروسي تحديداً. فإذا كان الانكليز والفرنسيون يريدون بلاد الشام والعراق وشمال أفريقيا، فإن الروس يحلمون بالسيطرة على الأناضول والقسطنطينية ذاتها، أي المضائق، وأن العرب وخاصة السوريين، دعموا في التسعينيات حركات تمردية وانفصالية في تركيا أملاً في تقسيم تركيا ليحصل العرب خلال هذه العملية على ما يعتبرونه أراضيهم المسلوبة " قضية عبد الله أوجلان ووجوده في سورية 1998". ويضيف الأتراك إلى ريبهم في العرب أن هؤلاء خلال هذه الفترة التي أخفقوا فيها في إقامة دولتهم القومية الكبرى التي كانت مسوغ انفصالهم عن الأتراك، لم ينجحوا إلا في إقامة كيانات صغيرة تحكمها حكومات استبدادية على حد وصف داوود أوغلو في كتابه المذكور، في حين نجح الأتراك في إقامة دولتهم الوطنية منذ عهد أتاتورك. على الرغم من المطامع الروسية- الأوروبية، مما يوهن حجة أو مسوغ العرب في الانفصال عن السلطنة.

**- ب -**

## عن أصل المشكلة

" إنشاء الله يا عرب......... تتوفقوا"[16]
حسين كاظم باشا
مسؤول تركي – عثماني

عند استعراض حجج الفريقين في أسباب سوء الفهم المتبادل، أو عند استعراض ريب وشكوك بل واتهامات كل فريق على حدة، يبدو للمراقب أن الجانبين كانا، وربما ما يزالان يتكلمان كلاماً "صحيحاً" أو مقنعاً على الأقل. فكلاهما يتحدثان عن وقائع وأحداث حدثت ولا مجال لنكران وقوعها، لكن لا أحد منهما تقريباً يشير بصراحة أو مداورة إلى الأسباب الحقيقة أو الآلية الداخلية الموجهة للأحداث، أو الأسباب العميقة لسوء الفهم المتبادل، لا أحد منهما يشير إلى أصل المشكلة الحقيقي، أي ببساطة لا أحد منهما، على ما يبدو يريد فهم أو تفسير ما حدث أو رؤية المنطق الداخلي المحرك والمسيّر لهذه الأحداث التي لا شك في حدوثها، والتي ما يني الطرفان يرددانها. لا أحد يبحث عن التيارات البحرية التحتية العميقة تحت موج المحيط المصطخب والعكر.

**ما المشكلة الحقيقة، أو العميقة لهذا الخلاف، أو سوء الفهم المتبادل بين العرب والأتراك إذن ؟؟**

يبدو أن أصل الخلاف هو التاريخ، وعلى نحو أدق مسألة ظهور الفكرة، أو الدولة القومية الحديثة بدل الدولة الإمبراطورية

---

[16] : جهاد نصف قرن – مصدر مذكور سابقاً ص 116 والعبارة المستشهد بها هي كلمة مسؤول تركي في بيروت "حسين كاظم" في حديثه لممثلي فيصل عندما تسلموا – مؤقتاً - إدارة مدينة بيروت معلنين انفصالهم عن السلطنة العثمانية عام 1918.

التقليدية التي تقوم على عدد من المذاهب والاثنيات تحت حكم أسرة واحدة . والحرب العالمية الأولى كانت فترة السقوط النهائي تقريباً لهذا النوع من أشكال الدولة الإمبراطورية متعددة الأعراق والمذاهب تحت حكم أسرة واحدة"[17]

فالدولة القومية التي بدأت تبزغ في أوروبا منذ معاهدة وستفاليا -1648، تكرست في القرن التاسع عشر وبلغت تمام انتشارها وتحققها خلال القضاء على الإمبراطوريات الثلاث في أوروبا وأسرها الحاكمة آنذاك- (الهابسبورغ – الروسية – العثمانية) في نهاية الحرب العالمية الأولى ومن هنا كان لا بد أن تصل أصداء أو نتائج هذه الحركة التاريخية إلى داخل الإمبراطورية العثمانية بعد أن أخفقت حركات التنظيمات الإصلاحية (1839-1856 ) في ابتكار وتطبيق مفهوم وعقد مواطنة جديد بدل مفهوم الملل والنحل وعقده الاجتماعي الإمبراطوري، أي بعد أن أخفقت في تحقيق العدالة والحرية والمساواة لمجمل مواطنيها، وأتى على أنقاضها دولة الاستبداد المديد للسلطان عبد الحميد الثاني (1876-1908) وهكذا انفصلت الأقاليم غير الإسلامية عن الدولة العثمانية في البلقان الأوروبي أولاً، ثم أتى دور الانفصال القومي العربي التركي، فقطار التاريخ وصل إلى محطته الأخيرة، وكان العرب والأتراك من جملة مسافريه فنزل كل في محطته. أم أن الأمر يشبه شقيقين كبرا، ومن حق كل واحد منهما أن يبني منزله الخاص به.

---

[17] :عن هذا الموضوع يمكن مراجعة الكتاب الممتاز التالي : ادموند تايلور – سقوط الأسر الحاكمة. ت. على عزت الأنصاري – القاهرة 1965

تريد الدولة، وقبلها الفكرة القومية أن تطابق ما بين قومها الواحد ودولتها الواحدة ولغتها الواحدة عكس الدولة الإمبراطورية التي تطابق ما بين عناصرها المختلفة وأسرة حاكمة ما، تاركة لكل ملة أحكامها وقوانينها ونمط حياتها. كما أن الدولة القومية "تصهر" عناصرها على حين أن الدولة الإمبراطورية تحافظ على مسافات ما بين عناصرها، ومثلما تعتمد الدولة الإمبراطورية على العقيدة، مع الأسرة الحاكمة لاحماً وعاقداً سياسياً واجتماعياً، فإن الدولة القومية تعتمد على اللغة والثقافة كجامع وعاقد اجتماعي سياسي، مع حكم أميل إلى الديمقراطية.

من هنا كان طبيعياً وعمليا، من الناحية النظرية والتاريخية والسياسية أن يحاول الأتراك فرض لغة موحدة لتوحيد الدولة وربطها، وكان خيارهم هو اللغة التركية، ذلك أن دولة لا لغة واحدة لها، هي دولة مفككة حتماً طالما ليس هناك أساس للتفاهم والمركزة، وكان طبيعياً من الناحية الأخرى، أن يرفض العرب ذلك. مع العلم أن بعض العرب أمثال سليمان البستاني في كتابه "عبرة وذكرى" 1908 كما تقدم وغيره أيد أن تكون اللغة التركية هي اللغة الأولى التي تجمع الدولة تمركزها وتوحدها و تسهل إدارتها. وحتى بعد ضم لواء الاسكندرون إلى تركيا قال رئيس الوزراء السوري: سعد الله الجابري 1891-1948 لوفد من سوريي اللواء المحتجين على ضمه "كلنا إسلام" - على ما يروى - لكن المشكلة كانت أبعد من فرض هذه اللغة أو تلك. فالمشكلة، كما أسلفنا كانت ظهور مبدأ الدولة القومية الجديدة كطريقة جديدة لتكوين الدول والكيانات والتلاحم الاجتماعي ثم وصولها إلى أراضي الإمبراطورية العثمانية، أو ممتلكاتها، على لغة ذاك الزمن.

في سبيل وقف الانحلال الذي لا يمكن وقفه، ومقاومة تجزؤ الدولة وتقسيمها الذي لا يمكن تلافيه بسبب ظهور الدولة القومية مدعومة بضغوط المسألة الشرقية والأطماع الأوروبية منذ القرن التاسع عشر وقف، وهذه حقيقة تاريخية، مجمل الشعور العقائدي والوطني الشعبي العربي و المتخوف من الأخطار الأوروبية إلى جانب بقاء الدولة العثمانية وضمنها والحفاظ على وحدتها، مثلما وقف مثقفون كبار آنذاك أمثال شكيب أرسلان ومحمد كرد علي وسليمان البستاني المتقدم ذكرهم وغيرهم، إضافة إلى الإداري العثماني ساطع الحصري (1880-1968) الذي تحول فيما بعد إلى منظر القومية العربية الأول،وقف هؤلاء مع الدولة وحتى ضد حركة الشريف حسين المدعومة إنكليزياً.

لكن وعلى الرغم من ذلك بقي تيار التاريخ والفكرة القومية الجديدة لبناء الدول الجديدة أقوى، أعني تيار الدولة أو الفكرة القومية فكان لا بد مما ليس منه بد، أعني الانفصال بين العرب والأتراك، وعلى الرغم من ذلك ما يزال شعور المودة تجاه تركيا قوياً في الأوساط العربية.[18] وشخصياً أشعر أنني في بيتي عندما أزور اسطنبول ولا أكاد أفرق بين اسطنبول البيزنطينية واسطنبول الإسلامية أو دمشق وحلب.

في واقع الأمر بدت مسألة تجاوز اللغة العربية في الخلاف بين العرب والأتراك عصية على التجاوز حتى لدى التيار الإسلامي أو العثماني المؤيد للمحافظة على وحدة السلطنة، فاللغة العربية ليست مجرد لهجة محلية، أو لغة شفوية أو جهوية

---

[18] : أتذكر هنا ما قالته لي امرأة كنت أسكن عندها في حلب أواسط سبعينات القرن العشرين "يا بني لا تغلط الأتراك ليسوا أجانب".

محدودة،يمكن نسيانها. أنها لغة ثقافة عريقة، لغة القرآن، لغة الدين والأدب والفلسفة والتاريخ. أضف إلى ذلك أنها لغة الدولة والمرحلة العربية وثقافتها في عهد "السيادة العربية" في مراحل الراشدين والأمويين والعباسيين وحتى من تلاهم.

ومن هنا، فإن المثقفين العرب المؤيدين للرابطة العثمانية الوارد ذكرهم أنفاً وأمثالهم ما لبثوا أن تحولوا إلى مثقفين قوميين عرب ومن أهم المساهمين في نهضة الثقافة العربية ولغتها في المرحلة التالية أي بعد حدوث الانفصال بين العرب والأتراك.

بالمقابل بدا الأتراك، في مراحلهم العثمانية المتأخرة والقومية الأتاتوركية والعثمانية الجديدة الحالية وكأنهم يحاولون أو يريدون نسيان المرحلة الثقافية والحضارية العربية بكاملها، وهذا ما تبدو آثاره واضحة اليوم في كتاب داوود أوغلو "العمق الاستراتيجي" المشار إليه آنفاً إذ يشعر قارئ هذا الكتاب أن المؤلف يريد أن يقول لنا بصراحة وبساطة "إن الإسلام والحضارة الإسلامية إنما بدأا مع سيطرة محمد الفاتح على القسطنطينية"، أضف إلى ذلك أن الساسة الأتراك، في مخيلتهم و ربما في لاوعيهم الدفين يبدون وكأنهم مازالوا ينظرون إلى المنطقة العربية بمنظار الأقاليم التي اجتزأت من السلطنة "من أملاكها" وليس بمنظار "حق تقرير المصير" لشعب شقيق آخر، وربما فعل العرب الشيء ذاته-قديما- في نظرتهم النوستالجية إلى الأندلس.

أما مبدأ "تصفير المشاكل" الذي يقترحه داوود أوغلو في كتابه فهو مبدأ جيد لو كان الأمر يعتمد - في المنطقة - على تركيا وحدها.

خلاصة ما أريد قوله أن عملية الانفصال بين العرب والأتراك وتكوين منطقتين، إن لم نقل دولتين قوميتين، كانت من نوع العمليات التاريخية أو هي خطوات في مسير تاريخ وتطور حدث، بانتظار تاريخ وتطور- وربما رابط آخر- أو طريقة أخرى لتكوين الدول أو الترابط بين البشر، أي بانتظار الرابط العابر للقوميات، وهذا ما تبدو طلائعه في تكوين وعلاقات الدول في عالم اليوم والاتحاد الأوروبي مجرد مثال.

إننا ببساطة بانتظار تاريخ جديد نتجاوز فيه معاً، عرباً وأتراكاً و آخرين، التاريخ القديم وتعقيداته وترابطاته وشكوكه، مثلما نتجاوز اللحظة الراهنة بغموضها وتعقيداتها وتعدد آفاقها واحتمالاتها.

**ملاحظة أخيرة :**

عندما وقع المسؤول العثماني – التركي في بيروت وثيقة التنازل عن السلطة العثمانية للسلطة العربية الوليدة سريعة الأجل عام 1918 قال عبارة طريفة وهي: إنشاء الله يا عرب........ تتوفقوا.

لا يعرف المرء هل كان دعاء حسين كاظم باشا قائل هذه العبارة صادراً من القلب أم هو مجرد مجاملة، أم هو غيظ مكظوم يضمر عكس لفظه، لكن الأكيد أن العرب لم "يتوفقوا" عكس الأتراك الذين "توفقوا" فأنشأوا دولتهم الوطنية، بينما وقع العرب تحت سيطرة الامبريالية الأوروبية، ثم تشظوا مزقاً في دول صغيرة.

ربما في هذا الوضع الضعيف العربي الممزق، والرخو جيوبوليتيكياً. يرى الأتراك الأقوياء الآن في زمن أدارة حزب العدالة والتنمية وأفكار داوود أوغلو الإستراتيجية فرصة لاستئناف حلمهم، أو معاودة مشاعرهم، وربما سياساتهم النوستالجية العثمانية –التركية في العودة إلى المنطقة العربية الضعيفة، فخلال المائة عام الأخيرة من النجاح التركي الذي يقابله الإخفاق العربي لا سيما في مجال بناء الدولة الوطنية وتوطيدها. بدت المناطق العربية و"الأملاك العثمانية السابقة" منطقة فراغ استراتيجي، وكل فراغ يغري بملئه كما يعلمنا علما التاريخ والجيوبوليتيكا. مثلما حاولت أمريكا في الخمسينيات من القرن العشرين أيام أيزنهاور الرئيس الأمريكي ووزير خارجيته جون فوستر دالاس اللذين تحدثا عن "ملء الفراغ في الشرق الأوسط" وكانت تركيا أيام عدنان مندريس من دعاة هذه الفكرة .[19]

---

[19] :يقوم مبدأ أيزنهاور في خمسينيات القرن العشرين على أن تملأ أمريكا الفراغ الناجم في المنطقة العربية عن انسحاب بريطانيا وفرنسا من هذه المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية "عملياً استقلال الدول العربية" بسلسلة من الأحلاف الأمريكية أو التابعة لأمريكا والتي تساعد في تطويق الاتحاد السوفيتي آنذاك، وبالأحرى تكون تكملة لحلف الأطلسي "الناتو". وهذا هو معنى ملء "الفراغ الاستراتيجي" في تلك الفترة - حول ظروف وسمات هذه الفترة، والتي يبدو أنها تستعاد الآن، خصوصاً بعد انهيار التوازن السوفيتي – الأطلسي عقب انهيار الاتحاد السوفيتي، وانكشاف البلدان العربية، ومنها سورية، التي كانت، بشكل ما، تحت الجناح السوفيتي في التوازن، مما يجعل الفترة الحالية تبدو وكأنها عودة إلى الصراع على سورية، أو عودة إلى الدور التركي أيام عدنان مندريس. من المفيد مراجعة المرجع الكلاسيكي كتاب باتريك سيل: الصراع على سورية : دراسة للسياسة العربية بعد الحرب 1945-1958 ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحة – دار الأنوار – بيروت 1968. ومثال آخر- وأنا اجلس على شرفتي أكتب هذه الورقة أسمع بائعاً متجولاً على عربة سوزوكي ينادي بالحرف الواحد: شحاطات إيرانية ب 75 ل.س وشحاطات تركية ب 90 ل.س. وهكذا أصبحت سورية التي تنتج هذه السلعة مجال منافسة وصراع عبر هذه السلعة إياها بين إيران وتركيا. وهذا يذكرنا بالحروب القديمة بين فارس واليونان ثم حروب فارس

فكيف ستسير الأمور في المستقبل المنظور بين العرب والأتراك ؟ وخاصة أن تركيا "المتغيرة"[20] حسب تعبير هانس كرامر "تبحث عن ثوب جديد" أو دور جديد - قديم على الأصح في المنطقة.

لا نستطيع هنا إلا الانتظار والمراقبة. وكل ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن المنطقة بكاملها "الشرق الأوسط" بحاجة، وربما هي على أعتاب نظام جديد قد يتجاوز المسألة القومية برمتها، وهنا يبدأ في الجريان تيار تحتي عميق آخر للتاريخ.

أخيراً:

ربما كان من المناسب أن ننهي هذا الفصل بقول من مقدمة الرئيس جمال عبد الناصر"تركيا الشقيقة"[21] الزعيم الذي يمثل أوج فترة النهوض القومي العربي، مثلما تمثل مرحلته أوج التوتر العربي – التركي في مرحلة الحرب الباردة - حيث استقطب الطرفان كل إلى معسكر.

"مهما يكن الأمر بيننا وبين تركيا، في الماضي أو الحاضر، فهي منا ونحن منها... وطننا ووطنها قطعتان من منطقة "الشرق الأوسط" التي ترسم لها الخطط وتدبر التدابير".

---

وبيزنطة وبعدها الحروب الصفوية –العثمانية حيث كانت سورية دائما احد أطراف أو احد ميادين هذا الصراع التاريخي.

[20] : راجع كتاب : هانس كرامر " تركيا المتغيرة تبحث عن ثوب جديد" ترجمة فاضل جتكر. مكتبة العبيكان – رياض 2001.وعبارة " ثوب جديد " يمكن قراءتها في سياقنا هذا "دور جديد" والمؤلف يتحدث عن: "انخراط تركيا المحتوم وتورطها الذي يتعذر الهروب منه في شؤون الشرق الأوسط وشجونه" ص 234

[21] : تركيا والسيادة العربية من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء أتاتورك. مصدر مذكور سابقاً. ص 5-7

## - 2 -

# محاولة بناء الدولة الوطنية السورية

## البحث عن الديكتاتور ـ الأتاتورك

**"وفضلاً عن ذلك، يتلخص في تاريخ الجيش، بوضوح مذهل، كل تاريخ المجتمع المدني"**

ماركس: رسالة إلى أنجلس ـ 1857

بعد انفصال العرب عن الأتراك عام 1918، وجد الأتراك عام 1918 الحل لمشكلتهم المزمنة؛ مشكلة تكوين دولة حديثة، في ديكتاتورية عسكرية علمانية، بدل ديكتاتورية الخليفة والخلافة الدينية، فكانت الديكتاتورية التي أنشأها وتزعمها مصطفى كمال أتاتورك. أما العرب، والسوريون تحديداً، فقد بدأت رحلتهم في البحث عن تكوين الدولة الحديثة، وعن الديكتاتور العلماني الخاص بهم متابعين شركائهم السابقين في السلطنة العثمانية: الأخوة الأتراك.

في معركة خاضها مشروع الديكتاتور الأتاتورك ـ العسكري العربي ـ السوري الأول، سقط الضابط يوسف العظمة شهيداً أمام غزو قوات الجنرال غورو في ميسلون عام 1920، وأتى الانتداب أو الاستعمار الفرنسي ليحول الاتجاه، في تكوين الدولة

المستقلة الحديثة، إلى المعركة ضد الانتداب وفي سبيل الاستقلال، وخلال ذلك، ربما كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر 1879 - 1940، هو مشروع الأتاتورك المدني لسورية آنذاك، إلى أن أتى الاستقلال عام 1946. ومن بقايا الجيش العثماني وتشكيلات القوات العسكرية التي أوجدها الفرنسيون "جيش الشرق" أتى مشروع الديكتاتور الأتاتورك العسكري الأول في مرحلة الاستقلال، الزعيم حسني الزعيم، الذي لم يمهل دولة الاستقلال إلا ثلاث سنوات، ثم انقضّ على السلطة محاولاً تقديم نفسه كأتاتورك سوري عسكري علماني. لكن الزعيم حسني كان مندفعاً وأهوج أكثر مما يُحتمل على ما يبدو، ويفتقد صفة أساسية من صفات الديكتاتور ـ الأتاتورك، ألا وهي الهدوء، الظاهري على الأقل، والتخطيط بعيد المدى والدهاء وإتقان لعبة التوازنات ما بين القوى السياسية والعسكرية، مثلما ما بين النفوس البشرية. فحتى الديكتاتورية تقتضي بعض الكياسة**!!**

سقط الديكتاتور ـ الأتاتورك الأول سريعاً، تحت سنابك ضباط أتاتوركيين صغار، وبعد خطوات تكتيكية قصيرة، تقدم مشروع الأتاتورك الثاني الرابض خلف الباب والكواليس، وخلف الزعيم الأتاتورك الضعيف اللواء سامي الحناوي، الذي انقضّ على حسني الزعيم، وهو العقيد أديب الشيشكلي عام 1952.

كانت لدى الشيشكلي سمات كثيرة من سمات الديكتاتور الأتاتورك القوي؛ فلديه نوع من الكاريزما، وهو ما يحتاجه كل أتاتورك، ولديه "مشروع وطني"، وهو ما يحتاجه أو يدّعيه كل ديكتاتور، ويعرف العلاقة بين الحكم والجيش والسياسة، وهو ما يحتاجه السياسي، لكنه كان أضعف شكيمة، وربما أكثر وطنية،

من أن يرتكب مجازر كبرى لشعبه في سبيل بقائه، أو أن يكون حاسماً في تصفية رفاقه، أو كل من يتحرك من شعبه وضباطه الصغار ضده، على الرغم من استعراض القوة المحدود في السويداء. ببساطة لم يكن الشيشكلي من الديكتاتوريين الذين هم على استعداد لتصفية شعوبهم أو أكثرها، أو الدخول في حرب أهلية في سبيل بقائهم، ولهذا آثر الرحيل عام 1954، آملاً في فرصة ثانية لم تأت لشخصه، بل أتت عبر شخص آخر ستعرفه سورية فيما بعد.

انقلب على الشيشكلي طغمة من الضباط الأتاتوركيين، ومشاريع الديكتاتوريين الصغار، وكانوا أكثر من عشرين مشروع ديكتاتور صغير، ولا داعي للأسماء فهي معروفة لدارسي تاريخ سورية، مع أنها سقطت في غيهب النسيان، لقد سقطوا جميعاً في سلة مهملات التاريخ، ولن يذكرهم أحد إلا كمشاريع مجهضة وبائسة، كطغاة مضمرين صفاهم ديكتاتور أكبر اختاروه هم بأنفسهم، وبالأحرى لجأوا إليه بعد أن عجزوا عن التسليم بأتاتوركية واحد منهم، أو ديكتاتوريته، على الأصح...

والتفصيل: عندما لم يستطع أي أتاتورك، أو ضابط، أو ديكتاتور سوري صغير ـ سمّه ما شئت ـ أن ينصّب نفسه "واحداً إلى الأبد" كما يليق بالديكتاتور، لجأت مجموعة الضباط الأتاتوركيين السوريين الصغار، الذين سيطروا على الحكم في سورية من وراء الستار البرلماني ـ الديمقراطي ما بين 1954 ـ 1958، بعد أن انقلبوا على الشيشكلي، إلى استيراد أتاتورك "جاهز" من مصر "الشقيقة". كان هذا الأتاتورك المصري الكبير

قد صفّى الحسابات مع رفاقه من محمد نجيب إلى خالد محي الدين، وأنهى السياسة المدنية في بلده، وألغى الأحزاب وبدأ مشروعه الديكتاتوري الأتاتوركي الخاص. وهذا الأتاتورك ـ الديكتاتور هو البكباشي جمال عبد الناصر، كما هو معروف لدى القاصي والداني.

ذهبت طغمة الضباط السوريين الأتاتوركيين الصغار وقدمت فروض الطاعة والولاء في القاهرة للبكباشي الكبير جمال عبد الناصر على ضوء مشاعر ومشاعل الوحدة العربية القوية دوماً وتاريخياً لدى وبين "الأخوة السوريين" لأسباب معروفة، وسيذكر بعضها في مكان آخر، فكافأ البكباشي المحنك جمال عبد الناصر الأخوة الضباط الأتاتوركيين السوريين، الذين "بايعوه"، بأن قضى على إمكانية استمرارهم في حلمهم الأتاتوركي الديكتاتوري الشخصي، أو في منافسته، على الأصح، فأبعدهم عن الجيش، وجعل منهم "وزراء في مكاتب" بكل أبهة "الوزراء المركزيين والإقليميين". فالبكباشي الكبير كان يعرف ما يجول في نفوس وعقول هؤلاء الضباط الأتاتوركيين الصغار المغرورين، وربما الساذجين الذين ظنوه ساذجاً، وهو لن يسمح لهم أن يلعبوا معه اللعبة التي لعبوها مع صديقه هو وعميدهم السابق؛ مشروع الديكتاتور الأتاتورك السوري المجهض: العقيد أديب الشيشكلي، فينقلبوا عليه.

وهنا استراح هؤلاء المغفور لهم جميعاً في بيوتهم يجترون بطولاتهم وأمجادهم الوهمية، وتلقف عبد الناصر من صديقه الشيشكلي فكرة "الحزب الواحد"، فالديكتاتورية يجب أن يكون لها "حزب واحد" مفصّل على مقاس "الديكتاتور الواحد"، او الأمير

الواحد، والأمير في العصر الحديث هو "الحزب" وليس الشخص المفرد، وإن كان ديكتاتوراً، كما يقول غرامشي، ولهذا يجب على الديكتاتور أن يفصّل واجهة سياسية حزبية عصرية، أو أن "يطوّع" حزباً موجوداً ليكون أداة للديكتاتورية وستاراً لها. ألم يفعل ستالين وهتلر وموسوليني ثم كمال أتاتورك الأمر نفسه؟ فلم لا يحاول ذلك أديب الشيشكلي في "حركة التحرير العربي" وعبد الناصر في "الاتحاد الاشتراكي العربي"؟!

لكن سورية قررت مع ذلك، أي مع عبد الناصر، أن تظل تبحث عن ديكتاتورها أو أتاتوركها الخاص، أتاتورك من اللون والعيار السوري. ولهذا كان طبيعياً أن يولد في صفوف الضباط السوريين جيل جديد من مشاريع الديكتاتوريين الأتاتوركيين الصغار خلال عهد عبد الناصر السوري، وتحت معطفه، وأن يحاولوا استئناف مسيرة "البحث عن الديكتاتور" الأتاتورك السوري الخاص، وقد ولدت هذه الطغمة فعلاً، وقامت بفعل حسبه الآخرون، أو ذوو المشاعر القومية الجياشة والنوايا الحسنة "جريمة شائنة"، بينما هو فعل عادي لطغمة أو مؤسسة عسكرية، واستئناف محاولة استيلاد وتصنيع الديكتاتور السوري الخاص بدل استيراده أو استعارته من الشقيقة الكبرى: مصر.

وهكذا قامت المجموعة التي سميت بـ: "ضباط الانفصال" بتسفير المشير عبد الحكيم عامر "ديكتاتور سورية النائب" على طائرة عائداً إلى القاهرة عام 1961. ثم مضوا هم كذلك لحال سبيلهم، فقد كانوا أهون شأناً من أن يفعلوا شيئاً إلا إبعاد الديكتاتور الأكبر، ثم غابوا كأي مشروع أتاتورك مخفق آخر مضى، أو مرّ على سورية.

الجيش السوري كان أماً لا تلد توائم، بل تلد مجموعات جراء، مجموعات من الطغاة الضباط بالقوة، مشاريع الأتاتوركيين ـ الديكتاتوريين، وكيف لهؤلاء أن يرضوا بجريمة شائنة مثل الانفصال وضرب القومية والوحدة العربية؟! وهكذا أزاح ضباط أتاتوركيون جدد أتاتوركيي الانفصال الضعفاء. ولكن، ويا للهول والمفاجأة ومكر الضباط الأتاتوركيين، الذي هو مثل مكر التاريخ، واضح وبسيط، ولكنه مفاجئ، لم يُعِد هؤلاء وصل ما انفصل من وحدة، ولم يعيدوا الأتاتورك السابق عبد الناصر، بل كانوا أكثر إمعاناً في "الانفصال". ومن ذكريات القومية والوحدة العربية وعبد الناصر العزيزة على السوريين، أبقوا على صفة "العربية "مضافة إلى الجمهورية السورية". وهكذا بقيت "الجمهورية العربية السورية" نداً وبديلاً للجمهورية العربية المتحدة، وكفى الله المؤمنين شر القتال والوحدة، فالصفات تنوب مناب الموصوفات في اللغة العربية!!

لكن "المرحلة التاريخية"، كما يقولون، كانت ما تزال تبحث عن ديكتاتورها أو عن أتاتوركها، وقد أثبت كل من جاء قبل عام 1963 من مشاريع الأتاتوركية ـ الديكتاتورية أنهم ليسوا على مستوى الأتاتورك المطلوب. وهكذا ولدت الأم سورية عام 1963 مجموعة جديدة من الأتاتوركيين الضباط الديكتاتوريين الصغار الذين سرعان ما صفّى بعضهم بعضاً تصفيات دموية هذه المرة، خلال الفترة ما بين عامي 1963 - 1970، إلى أن أتى الديكتاتور الأتاتورك "ضابط الكل" عصارة التجربة الديكتاتورية الأتاتوركية السورية، سليل طغمة الضباط مشاريع الأتاتوركيين الديكتاتوريين السوريين من حسني الزعيم إلى عبد

الحميد السراج إلى سليم حاطوم وأمين الحافظ وصلاح جديد، أي إلى أن أتى "كش ملك" لكل طغم الضباط الديكتاتوريين الصغار، وأظنكم عرفتموه: إنه الفريق الجوي الركن حافظ الأسد، الذي سرعان ما أصبح "قائد المسيرة إلى الأبد" ورئيس الجمهورية والأمين العام للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، والقائد العام للجيش. واستمرت هذه المسيرة "إلى الأبد" من عام 1970 إلى عام 2000. أما الحزب أو الغطاء السياسي، فقد كان جاهزاً هذه المرة، مدعماً بجبهة وطنية تقدمية!! ثم أسلم الروح هذا "الأبد" ولكن بعد أن أورث ابنه الثاني "أبداً صغيراً" أو يافعاً، بعد أن كان قد ابتدع طقوس عبادة ابنه الأول، فجاء بجديد في التقاليد الشرقية العريقة، وهو: عبادة الأخلاف، بدل عبادة الأسلاف. وبقيت مشكلة حافظ الأسد الصعبة أنه كان ديكتاتوراً بلا كاريزما، ولهذا بدت ديكتاتوريته عنفية عارية وبلا إنجازات كبيرة، على الرغم من مشروعها الكبير المخفق، عكس أتاتورك.

أدرك حافظ الأسد، بثاقب بصره وثاقب مطامعه ومصلحته ونفسيته، أن سورية، ومنذ عام 1949، أو ربما منذ مرحلة دولة الاستقلال، كانت تبحث عن ضابط أتاتوركي وديكتاتور، مثلما تبحث امرأة شكسة عن رجل عنيف وشرس أكثر مما تبحث عن حب أو زواج شرعي، أو تكوين "عائلة محترمة"، فندب نفسه لهذه المهمة لأنه من الطينة نفسها التي جبلت منها هذه المرأة، وحمل سوطه، وعرف أن البداية إنما تكون، وكما علَّم جمال عبد الناصر، في إبعاد كل الطغاة الأتاتوركيين الصغار المحتملين، ولكن إلى السجون والقتل هذه المرة، وليس إلى الوزارات، من سليم حاطوم إلى صلاح جديد إلى محمد عمران، أما زياد الحريري وأمين الحافظ ولؤي الأتاسي وجاسم علوان و و... فقد

صفاهم قبلاً بالاشتراك مع لجنته العسكرية، وإمعاناً في "إجراءات السلامة" قرر هذه المرة أن على هذه المرأة التي تلد مجموعات من جراء الطغاة ومشاريع الضباط والأتاتوركيين الصغار ألا تلد بعد اليوم أبداً إلا الجراء الوديعة، فأنشأ "الجيش العقائدي" وأنهى السياسة في الجيش، فهو "جيش عقائدي" وقرر أن عصبية القرابة والعائلة ونظرية ابن خلدون وإفساد الناس وشراءهم وتهديدهم هي أساس الدولة، وأساس الديكتاتورية الأتاتوركية. ومضى في طريقه عنيفاً لدرجة أن كثيرين سجنوا في زمنه أكثر من عشر سنوات لأنهم حملوا مجرد ورقة، أو منشوراً سياسياً مضاداً لديكتاتوريته، أضف إلى ذلك أن الحزب السياسي كان جاهزاً كستار لهذه الأتاتوركية الديكتاتورية، حزب البعث الذي لا يعرف المرء من يوم تولى حافظ الأسد للسلطة، هل هو حزب حيٌّ فيُرجى، أم هو ميت فيُنعى. كما قالت الشاعرة الخنساء عن أخيها صخر المريض "كوما".

ومن يومها، لم نعد نسمع إلا قليلاً، عن جيش انقلابات ومشاريع طغاة صغار، بل صار الجيش مؤسسة أمنية هدفها الحفاظ على ديكتاتورية الحاكم، وبعد أن أدى دوراً أخيراً مشرفاً في عام 1973 انسحب، في عهد ابنه ووريثه، ليحارب في حماة ودير الزور وجسر الشغور والبوكمال عام 2011.

**ملاحظات:**

ملاحظة رقم (1): في تحرك يشي بأن سورية تحاول أن تلعب دوراً أكبر من قوتها، كما سنبين ذلك فيما بعد، أرسلت سورية

جيشها خارج حدودها - بعد الاستقلال - مرات كثيرة وكأنها تحاول لعب دور إقليمي. فقد ذهب الجيش السوري إلى الأردن مرتين (1957 - 1970) وإلى العراق عام 1963، وإلى لبنان عام 1976 والسعودية عام 1992 ضمن التحالف ضد صدام حسين "الشقيق".

ملاحظة رقم (2): طوال المائة عام الماضية، والعرب يحاولون تقليد النموذج الأتاتوركي التركي، وقد أخفقوا في ذلك، واليوم يقترح الأتراك على السوريين والعرب النموذج الإسلامي التركي. أعتقد أن النتيجة لن تكون أفضل، فالمجتمعات العربية الحديثة إما أن تبنى على أساس مدني، علماني، ديمقراطي، أو تخرج من التاريخ. فلا أتاتوركية نفعت ولا إسلامية تنفع. مع أن السيد رجب طيب أردوغان، رئيس الوزراء التركي، يتحدث بكلام طيب عن علمانية الدولة كنظام مع حرية العقيدة للمواطنين.

ملاحظة رقم (3): إن أوضاع الجيش السوري وكثرة طغم الضباط المتنافسة فيه على الديكتاتورية هي ما جعل خالد العظم في مذكراته يندم ويأسف لأنه تعاون مع الجيش وضباطه في السياسة. أما صبري العسلي فقد قال لشكري القوتلي: "إن جيش حسن الخراط أكثر انتظاماً من هذا الجيش السوري وأكثر انضباطاً في قيادته، فاستقل حتى أتبعك ونترك الأمر لهم، وإلا فالحالة لا تطاق". كما يروي أسعد الكوراني في مذكراته. والمعروف أن شكري القوتلي كان له رأي مشابه، وربما أشد عنفاً، بضباط الجيش السوري.

ملاحظـة رقـم (4): مـرة سـألني دبلوماسـي مغربـي يعمـل فـي الجامعة العربية بعد أن توطدت الثقة ما بيننا وكنا في إشبيليا عـام 1990: أنتم السوريون، لماذا أصبحتم هكذا، بعد أن كنتم القدوة والمنارة للشعوب العربية؟!

ملاحظـة رقـم (5): نـذكر فـي سـياق هـذا التـاريخ لمشـاريع الأتاتوركية ـ الديكتاتورية أيضاً بعض الضباط مشاريع الديكتاتور ـ الأتاتورك الذين صفى بعضهم بعضاً اغتيالاً مثل العقداء: محمد ناصر، عدنان المالكي، غسان جديد... الخ. أضف إليهم اغتيال كل من سامي الحناوي وأديب الشيشكلي في المنفى.

ملاحظة رقم (6): كان حافظ الأسد يريد حقاً لسورية أن تقف شامخة على قدميها، ولكن شريطة أن يكون هو، وتالياً ولده، على رأسها، وهذه طريقة خطرة في التفكير والسلوك أدت إلى ما نعيشه الآن، حتى على فرض حسن النية، أي أن حافظ الأسد كان يريد "الاستقرار" لسورية وتجنبها مغامرات الضباط الأتاتوركيين التي يعرفها جيداً.

الملاحظة رقم (7): في التجربة المصرية، قبل جمال عبد الناصر وقبل مصطفى أتاتورك في تركيا، في القرن العشرين، كان محمد علي في القرن التاسع عشر، هو محاولة الديكتاتور الأتاتورك "العربي" الأول، فقد حلم محمد بتجديد الخلافة العثمانية، وعندما أخفق، فكر ابنه إبراهيم بدولة عربية، لكن النتيجة كانت أن محمد علي قنع بحكم عائلته لمصر، ثم حاول أحمد عرابي باشا أن يكون أتاتورك مصر الخاص. وهكذا صغرت أحلام محمد علي من تجديد الخلافة الإسلامية في

إسطنبول، إلى القناعة بحكم عائلته لمصر. ويبدو أن ديكتاتور سورية الأتاتوركي تعرض لمسار مشابه، فحافظ الأسد البعثي كان يحلم بالوحدة العربية، وعندما حكم سورية فكر بجبهة شرقية، أو ببلاد الشام، لكنه عندما أخفق قنع بتوريث ابنه، أو حكم عائلته على الأصح (خديوية أخرى على نمط خديوية محمد علي).

أما أتاتورك تركيا، فقد كان صارماً في معاداة الاستبداد والوراثة وصادقاً في جمهوريته وعلمانيته، وربما لهذا نجح حيث أخفق العرب الآخرون.

قال مصطفى كمال أتاتورك عام 1930:

"لا أريد أن أورّث البلد مؤسسة استبدادية وأدخل التاريخ بهذه الصفة".

## - 3 -

## عن الشخصية السورية: الوعي الشقي

1 ـ لا يعترف السوري، فرداً وحكومة وشعباً وحاكماً، في أعماق لاوعيه، إلا بسورية الكبرى "بلاد الشام" ولا يفهم تاريخ سورية الماضي إلا بأنه تاريخ الفينيقيين، أو تاريخ الدولة الأموية ومركزها دمشق، والعلاقة بين العرب وأوروبا هي العلاقة بين صلاح الدين والفرنجة، وكلها رطانة سورية مصدرها واحد، وإن ظهرت قومية سورية أو عروبية أو إسلامية. أما سايكس بيكو وملحقاتها فهي ليست في الوعي واللاوعي السوري إلا نكتة سمجة أو "مؤامرة" دنيئة ما تزال مستمرة!! وهل التاريخ كله إلا مؤامرة؟! سنعرض لهذا الموضوع ـ المؤامرة ـ فيما بعد.

2 ـ يجد السوري، وأعني السوري اليوم، نفسه في وضع حرج، ربما مثل وضع التاجر أو الإقطاعي المفلس، فهو يملك ماضياً غنياً ومضيئاً وواقعاً خرباً وفقيراً. لديه أوهام عن ماض ذهبي ودولة كبرى في الماضي وفي الحلم، ولكن "سورية الحديثة" صغيرة ومقطعة وفقيرة في الواقع. لديه أوهام عن "دور تاريخي" لنفسه، شعباً وأفراداً وحكاماً، لكن إمكاناته أضعف من أن تساعد على تحقيق هذه الأحلام ـ الأوهام، أو الاضطلاع بهذا الدور الرسولي الذي ندب نفسه له دون أن يدعوه أحد.

ما العمل إذن؟!

3 ـ يلجأ السوري، أفراداً وحكاماً وشعباً، إلى حيل الضعفاء: الملعنة والتذلل والبلطجة والكياسة والتذاكي والتغابي وكل حيل "البيع والشراء" والبطش وقت القدرة.. كل ذلك في وقت واحد، ثم يختار نظامه السياسي في عهد الديكتاتورية ـ الأتاتوركية، بعد أن عرف ضعف إمكاناته وعجز عن مقاتلة "أعدائه" الذين يقفون دون تحقيق أحلامه وأوهامه ومطامحه التي سبق عرضها، في أن يقاتل هؤلاء الأعداء ـ جملة وتفصيلاً ـ بوسائل أخرى وأفراد وقوىً أخرى يتوهم أنه يتحكم بها ويديرها؛ مرة يقاتل في فلسطين، وأخرى في لبنان، وثالثة في العراق، ودائماً يستخدم "بنادق للإيجار" من أبي نضال الفلسطيني إلى عبد الله أوجلان الكردي، ثم عماد مغنية الإسلامي، إلى كارلوس الماركسي. ولهذا تجتمع عنده "الأحزاب والحركات الشيوعية والعمالية العربية" مثلما تأوي "حماس" وحزب الله ومنظمات أحمد جبريل وفتح والجبهات الديمقراطية والشعبية... الخ، وأخيراً وليس آخراً اخترع، بعد "قبضايات الحارة"، "شبيحة" البلد ليقاتل شعبه. مرة يشترك في الكفاح و"الإرهاب" ضد الإمبريالية بالبنادق التي ذكرناها ومرة يتحالف مع أمريكا ضد "الشقيق" صدام حسين. المهم أن يعوِّض عن ضآلة إمكاناته ودوره ببعض الحركات الاستعراضية، من التحالف مع الاتحاد السوفييتي الشيوعي ومعاهدة الصداقة، إلى التحالف مع إيران الدينية "تحالف الوجود" إلى مراضاة السعودية وتركيا وحتى قطر، ولا بأس أحياناً ببعض الحركات الاستعراضية التمردية ـ البهلوانية الخطرة، لكن المحسوبة، والتي يفهمها الآخرون جيداً: ابتزاز وملعنة على الطريقة السورية إياها.

4 ـ وربما لهذا يبدو السلوك السياسي للنظام السوري مزيجاً من الليونة والقساوة، من الصفاقة والوقاحة ومن التهذيب والحكمة والحماقة، من الهوان والعنفوان. وهو في حقيقته لا هذا ولا ذاك، لكنها مجرد حيل الضعفاء، ومغامرات البحث عن ماضٍ ضائع ومكانة ضائعة لا يستطاع إليها سبيلا، في ظل الأوضاع السورية والدولية الحالية على الأقل.

5 ـ هنا في هذا البحث عن المجد الضائع وتعويضه بالأوهام الكبرى وبالحركات الاستعراضية، والشعارات الكبرى، يرفع السوريون علم العروبة عالياً لتكون سورية، ودمشق تحديداً "قلب العروبة النابض" وآخر ما تحتاجه العروبة قلب ضعيف وهش مثل القلب السوري بإمكاناته المتواضعة وتلوناته المثيرة للريبة، وحركاته الاستعراضية التي سبق عرضها.

6 ـ يبدو الشعب السوري، أو هكذا بدا فيما مضى، ذا وطنية عالية، وذا مشاعر وطنية وقادة مثلما هو ذو مشاعر قومية أكثر اشتعالاً. وقد تكون كلها مشاعر صادقة، لكنها، في حقيقتها، فارغة المحتوى، مع أنها لا بديل عنها ولا غنى، مثل الخرافات الدينية، فهي ما يعوّض السوريين عن حنينهم القديم إلى مجد الفينيقيين ودولة الأمويين ومقارعة الفرنجة وإخراجهم من بلاد العرب، وتحطيم سايكس ـ بيكو، وأخيراً هي ما يعوضهم عن بؤس راهنهم وواقعهم، بؤس تشرذمهم و موزاييكهم الفريدة، وتمسكهم بهذا الموزاييك الذي غطوه بعلم العروبة، مثلما غطوا "الانفصال" وأزالوه بعلم الوحدة والحرية والاشتراكية والجمهورية العربية السورية. لكن الانفصال بقي انفصالاً فوقه يرفرف "علم البعث" العروبي، الذي لم يستطع أن يحيي أو يبعث

شيئاً إلا العصبيات الطائفية والدينية والمحلية بعد خمسين عاماً من وجود الحزب القائد في قيادة الدولة والمجتمع نحو الهاوية.

7 ـ يعرف السوري أن ما من مذهب ديني وإثنية في المنطقة إلا وله قنبلة موقوتة في هذا "البلد" لكنه يقول عن هذه القنبلة بأنها وردة، ثم يُفاجأ عندما تنفجر بين يديه هذه القنبلة، التي قدمها للناس على أنها وردة، وهو يعلم أنها قنبلة. طريقة أخرى من مخادعة الآخرين التي توصل إلى مخادعة الذات، ثم اتهام الآخرين بأنهم هم المخادعون والمتآمرون. هم من زرعوا القنبلة.. يا للسفلة!! ولهذا نادراً ما يتكلم سوري في السياسة إلا ويستخدم كلمة "مؤامرة" كمحرك للتاريخ. وسنعرض ذلك فيما بعد.

8 ـ كشخصية انفعالية وفردية، يفاجئك السوري. يفاجئك بصدقه وعمقه، مثلما يفاجئك بكذبه وانتهازيته وتجاريته. يفاجئك برجولته وقت الشدائد، كما في ميسلون واليوم عام 2011، مثلما يفاجئك بخزيه أحياناً إلى حد جرّ عربة الجنرال غورو بجسده بعد أيام من استشهاد يوسف العظمة التراجيدي عام 1920. يفاجئك السوري بصمته، مثلما يفاجئك بنطقه. يفاجئك بحكمته مثلما يفاجئك بحماقته. يفاجئك بدعته مثلما يفاجئك بتمرده، أكثر ما يفاجئك هو أن لا "هوية" وطنية "جامعة" للسوري، إلا ما يدعوه هو "سورية" ثم ينكرها لأنه يجدها ضيقة على مطامعه وأحلامه وأوهامه فيسبقها بكلمة "عربي".

9 ـ مع انقضاء فترة وحكم ديكتاتورية الضابط حافظ الأسد، اكتشفت سورية أن رهانها على ديكتاتور أتاتورك منقذ طوال

مائة عام هو عبث في عبث، ومع ولده الذي كان حكمه نوعاً من "ديكتاتورية بلا ديكتاتور"، وهذا اختراع سوري عجيب آخر، اكتشفت سورية أن الرهان على الديكتاتورية الأتاتوركية لا يعدو المسخرة، مسخرة الطبعة الثانية التي تحدث عنها ماركس. فقررت أن تبحث عن طريق آخر على ما يبدو. وربما لهذا حدث ما يحدث الآن - 2011 -

10 ـ هنا كان لا بد من عودة العودة، عودة الروح.. كان لا بد أن يحدث ما حدث عام 2011، لكن مع دفع ضرائب ومستحقات وأثمان كل الأوهام الديكتاتورية ـ الأتاتوركية ـ العسكرية السابقة خلال الزمن الماضي. وإنها لكلفة باهظة ومؤلمة على ما يبدو.هنا ـ ربما ـ وعت هذه المرأة المشاكسة ـ سورية ـ أن مشاكستها لا تفيد، وأن من العبث الجري وراء المغامرات الكبيرة أو الصغيرة أو عبر الأوهام والأحلام الماضية والمستقبلية عبر طغم أتاتوركية وديكتاتورية عسكرية لا تعمل إلا لحسابها ومصلحتها وأوهامها وعقدها.

اكتشفت: على سورية أن تعتمد على نفسها وعرق جبينها ودمها. فتنال: دولتها ـ حريتها ـ هويتها.

أخيراً:

10 -... فالسوري مهما كان زمنه، ومهما كان انتماؤه لا يتخيل نفسه، في أعماق لا وعيه، إلا أموياً وصل ما بين حدود الصين وحدود فرنسا، أو فينيقياً وصلت مراكبه إلى الجزر البريطانية ذات يوم... ذات يوم...

وبما أن ذلك الحلم شبه مستحيل اليوم، فلكم أن تتخيلوا ما ينتج عن هذه الأفكار ـ الأحلام ـ الأوهام لدى الأفراد والحكام. وقد جاءت "شآميات" سعيد عقل، بصوت فيروز الساحر، لتزيد هذا اللاوعي وعياً، أو لتجعله "وعياً شقياً" ولتعطي للأسطورة شكلها الفني ـ النوستالجي الحالم، ولتكون بالنسبة للسوريين نوعاً من النشيد الوطني السري واللاواعي. أما بالنسبة لسورية ككل "ووضعها" التاريخي، فإننا نذكر هنا بقول جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكي في الخمسينيات عن "الديناميكية السورية": "سورية مثل إناء الراديوم لا تشع داخلها فقط، بل تشع خارجها أيضاً..."

ربما هنا المأثرة السورية، وهنا المأساة أيضاً.

ملاحظة عن المؤامرة:

المؤامرة بالنسبة للسوريين، وربما بالنسبة للعرب عموماً، "هنا أتذكر كتاباً لسعد جمعة رئيس وزراء الأردن عام 1967 بعنوان: "المؤامرة ومعركة المصير" هي مثل (يد السوق الخفية) التي تتكفل بتنظيم كل شيء في عرف منظري الاقتصاد الرأسمالي، أو مثل (العامل الاقتصادي) الذي يوجه التاريخ لدى المنظرين الماركسيين، وهي كذلك – المؤامرة - تنوب مناب الدافع الجنسي (الليبيدو) في النظرية الفرويدية، مثلما هي تقوم مقام (الطاقة الروحية أو الدافع الحيوي) لدى برغسون. وربما هي مثل قدرة الله الخفية، أو مكر الشيطان الأكثر خفاء لدى المؤمنين بالأديان.

والخلاصة أن المؤامرة هي لدى الأخوة السوريين (العلة الكافية والمبدأ المفسر) لأن البشر ببساطة، حتى ولو كانوا شعوباً بكاملها أو مراحل تاريخية واجتماعية، أدوات غبية في يد دهاقنة المؤامرة شديدة الخفاء وشديدة الوضوح معاً! وهذه فهلوة سورية عز نظيرها.

وهذا نمط من التفكير لا يمكن إلا أن نسميه بالاسم الملطف بـ: "سيكولوجية الضعفاء والمفلسين" أو (التفكير السحري) والتفكير السحري هو المرحلة البدائية للتفكير والفكر حسب تحقيب أوغست كونت الثلاثي لمراحل التفكير البشري. ما يعني أن أصحاب هذا النمط من التفكير وقفوا في محطة التفكير السحري ولم يصلوا بعد مرحلة التفكير الفلسفي ومن ثم مرحلة التفكير العلمي. في هذا النمط من التفكير بدهي أن يكون ما يحدث في سوريا عام 2011 هو: مؤامرة مكشوفة!!

لعلهم يهتدون!

لعلهم يصلون.

## - 4 -

## عن حزب البعث

"آه يا بعثيون كم أنتم شديدو القسوة مع بعضكم البعض!!"

جمال عبد الناصر، في حديث مع حافظ الأسد ونور الدين الأتاسي عام 1968.

1 ـ لقد خرج حزب البعث من الحياة السياسية منذ أن "حلّ نفسه" واختار أن يكون الجيش والانقلاب العسكري وسيلته في الوصول إلى السلطة ناهيك عن حل نفسه أمام عبد الناصر، وإنها لدلالة تاريخية، سيتضح عمقها ومعناها تالياً، أن يسارع حزب البعث إلى تأييد انقلاب حسني الزعيم الأول عام 1949، ولكن هذا الحزب وهو يخرج من الحياة السياسية لم ينس أن يخرج البلد منها كذلك.

2 ـ منذ انقلاب 8 آذار، وربما منذ الوحدة 1958، التي أبرمها ضباط البعث مع جمال عبد الناصر، وكان لها "مضمون" الانقلاب وأسلوبه، أبعدت السياسة عن المجتمع، عن طريق حل الأحزاب السياسية ومصادرة العمل السياسي والحريات العامة، فبعد انقلاب الوحدة العسكري، أتى انقلاب الانفصال 1961 ثم انقلاب 8 آذار 1963، ثم انقلاب 23 شباط 1966، ثم كانت حرب 1967 التي أثبت فيها الجيش السوري أن تاريخه الانقلابي الحافل قد ضعضع صفوفه وقوته، وأرسل ضباط أركانه إلى

التقاعد، وبعدها أتى انقلاب 16 تشرين أول 1970، ولا ننسى محاولة انقلاب جاسم علوان عام 1964، ثم أتت مرحلة الاغتيالات والإعدامات والانتحارات والتصفيات والتسريحات وتبعيث الجيش نهائياً، فاغتيل سليم حاطوم ومحمد عمران ومات في السجن صلاح جديد وانتحر عبد الكريم الجندي وغازي كنعان.. وربما يصح أن نذكر انتحار رئيس الوزراء المدني محمود الزعبي، يرحمهم الله ويرحمنا جميعاً...

3 ـ كل هذه التصفيات الداخلية أتت والبعث في السلطة عن طريق الانقلاب العسكري مضمراً ومعلناً بعد أن كان حزب البعث في أيام "الرجعية"، أي الديمقراطية البرلمانية، شبه مسيطر على الحياة السياسية في سورية، ففي آخر مجلس نيابي 1954 - 1958، كان حزب البعث يحتل أهم مراكز القرار في الدولة من رئيس المجلس النيابي أكرم الحوراني إلى وزير الخارجية صلاح البيطار، إلى وزير الاقتصاد خليل الكلاس، إلى وزراء آخرين وكتلة تعادل أكثر من ربع المجلس النيابي، إلى مجموعة ضباطه المعروفة التي انقضّت على كل مكتسباتها "الديمقراطية" هذه، وسلمت مقاليد أمورها وأمور سوريا إلى الديكتاتور ـ الأتاتورك المنتظر البكباشي جمال عبد الناصر عام 1958، ثم انقلبت عليه مجموعة أخرى كما تقدم.

4 ـ لقد تخلى حزب البعث وقادته وضباطه ـ مختارين ـ عن الشرعية الديمقراطية والبرلمانية عام 1958، والتي كانوا أقوياء في ظلها كما تقدم، وقام بسلسلة من الانقلابات العسكرية كانت نتيجتها إنهاء التجربة الديمقراطية السورية، ووأد الحياة السياسية في سورية، وأخيراً تصفية حزب البعث نفسه لصالح نظام

عسكري فردي، ثم نظام أمني ديكتاتوري لا يعرف له رأس أو أتاتورك، كما نشاهد اليوم (2011).

5 ـ والحقيقة أن النظام السوري منذ عام 1963 إنما هو في جوهره نظام "أكرم الحوراني" أي النظام القائم على التحالف ما بين الفلاحين الفقراء والجيش وفقراء الأحياء الشعبية يدعمهم المثقفون اليساريون. وقد استمر هذا التحالف "شغالاً" حتى مطلع القرن الحادي والعشرين، إذ انهار ـ موضوعياً ـ وانفرط عقده نتيجة التحولات الاقتصادية الجديدة في سورية، وبروز ظاهرة المتمولين الجدد وخراب الريف وتضخم المدن، وهذا ما عنى أن البعث وعسكره ونخبته السياسية والمالية الجديدة قد تخلوا عن تحالفاتهم وقاعدتهم الاجتماعية السابقة، وانحازوا إلى طبقة الرأسماليين المتكونة حديثاً في ظل النظام الجديد وبواسطة قبضته الأمنية وفساده الاقتصادي، فكان طبيعياً أن تتخلى هذه القاعدة الشعبية عمن تخلى عنها، وربما كان ذلك أحد أهم أسباب التحركات الشعبية التي تشهدها سوريا اليوم - 2011 -

6 ـ خذوا مثلاً طريفاً على ذلك: طوال الفترات السابقة من تاريخ سورية، كانت تتردد على الألسنة أسماء السياسيين والضباط والمثقفين: حسني الزعيم، الشيشكلي، عبد الحميد السراج، أمين الحافظ، صلاح جديد، ميشيل عفلق، حافظ الأسد، أكرم الحوراني، شكري القوتلي، خالد العظم، خالد بكداش، رشدي الكيخيا... وأمثالهم..

أما الآن، فبطل المرحلة الذي يتردد اسمه على كل لسان هو السيد رامي مخلوف مالك سيرياتل وباقي المشاريع التي لم يتعب

في تحصيلها، أو السيد محمد حمشو. وثمة أمثلة أخرى لكننا لا نريد أن نخرج عن حدود الطرافة والجدية معاً.

أما أسماء مثقفي البعث أمثال: بديع الكسم، سامي الدروبي، عبد الله عبد الدايم... الخ، فليس لها بديل على ما نعلم في ظل نظام البعث ـ الأتاتورك ـ الديكتاتور الجديد. إلا إذا اعتبرتم "اتحاد الكتاب العرب" مثقفين!! وفي هذه الحالة: لكم الله.

ثمة مثال آخر:

كانت محافظات حماه وحوران وحمص واللاذقية (الساحل) ودير الزور هي أماكن قوة حزب البعث تنظيمياً وعسكراً وفكراً خلال العقود السابقة 1948 - 2000، أما اليوم فإن حمص وحوران وحماه واللاذقية ودير الزور وإدلب وجوارها هي مسارح رفض نظام البعث وأفكاره وديكتاتورية وأتاتوركية تركيبته الأمنية المحضة. هذه ليست مفارقة، لكنه التاريخ الذي لا يجامل أحداً. فلا تؤاخذوا التاريخ على صراحته وصرامته، ولا تتهموه بالتآمر!!!

-5-

## عن تاريخ وظروف تشكيل قوة الأمن السوري

"وحيثما تستعمل القوة تكون السلطة ذاتها قد أخفقت"

حنة أرندت

1 - في ظروف وجود جيش وضباط وأتاتوركيين صغار حالمين غير مأموني الجانب، كان لا بد للبعث وفئة ضباطه أن ينشئوا قواهم الأمنية الخاصة بعد انقلاب 8 آذار 1963 والاستيلاء على السلطة. وهكذا أنشأوا أولاً "الحرس القومي" وهو ميليشيا حزبية أدت دورها خصوصاً ضد الأخوة "الناصريين" ثم غيرهم، وبعدها أتت كتائب خالد الجندي العمالية، فهددوا بها الأخوان المسلمين، ثم وبعد انقلاب حافظ الأسد عام 1970، أتت مخابرات القوى الجوية التي تتبع مباشرة لقائد القوى الجوية الفريق حافظ الأسد. وبعدها أتت القوى "النظامية": سرايا الدفاع بقيادة "الدكتور" رفعت الأسد.

لكن قائد القوى الجوية صار رئيساً للجمهورية. فكان لا بد أن يكون حجم الأمن "رئاسياً" ومتعدد الفروع، وهكذا نميت الفروع القديمة، ولها تاريخ عريق منذ العقيد الديكتاتور - الأتاتورك المجهض عبد الحميد السراج، وأنشئت فروع أمنية - أمينة جديدة.

أمام إبعاد الشعب عن السياسة بالقوة، وإبعاد الجيش كذلك عن السياسة، كان لا بد أن يكبر حجم القوى الأمنية ودورها، وكان لا

بد من عناصر جديدة تغذي هذه القوى الجديدة التي كانت مهمتها الوحيدة إرهاب الناس وإبعادهم عن العمل والتفكير السياسيين وضبط الناس، إضافة إلى ضبط "الاتحادات والمنظمات الشعبية"، وضبط الجبهة الوطنية التقدمية. فمن أين تُغذى هذه القوى الجديدة؟

كان الساحل السوري وحوران وباقي الأرياف السورية، في ظل عدم وجود تنمية اقتصادية أو صناعة وطنية، مناطق عمالة فائضة تاريخياً، وكان جزء كبير من هذه العمالة الفائضة، نساء ورجالاً، يذهب إلى أمريكا اللاتينية والخليج ولبنان وأماكن أخرى للعمل. وبعضها ذهب إلى التطوع في الكتائب التي أنشأها الفرنسيون أثناء فترة الانتداب؛ "الحرس السيار وجيش الشرق".

أما بعد 8 آذار 1963 و16 تشرين 1970، وفي ظل وجود أعداد كبيرة من الضباط البعثيين الساحليين والريفيين الموالين للنظام، والذين صغرت أحلامهم الديكتاتورية ـ الأتاتوركية إلى مستوى المنافع المادية الصغيرة المباشرة، هؤلاء الذين أنيطت بهم مهمة تكوين القوى الأمنية الجديدة، فقد استورد هؤلاء الضباط من مناطقهم القروية عمالتها الفائضة وصار "الشباب"، أو "فائض العمالة" هؤلاء، رجالاً ونساء، يأتون إلى دمشق، حسب علاقات ولاء قرابية وزبائنية؛ إلى سرايا الدفاع وقوى الأمن والتمريض والمؤسسات الحكومية بالنسبة للنساء، بدل الذهاب إلى أمريكا اللاتينية ولبنان والخليج. وبمرور الأيام، ومع العلاقات الزبائنية المعروفة في مجتمعنا بين هؤلاء الذين في دمشق وغيرها، وأبناء منطقتهم، تكاثر فائض العمالة الريفي هذا وصار أحياءً ومعسكرات في مدن مثل دمشق، وأحياء مثل 86

وحي الورود ومساكن الحرس الجمهوري وغيرها. أما عمالة المناطق الأخرى الزائدة، فقد استمرت في بطالتها أو رحلتها إلى الخليج وأمريكا اللاتينية. يبدو الأمر شبيهاً تماماً بأحد أفلام المافيا، لا سيما فيلم "العراب" فالدون كورليوني هاجر من صقلية إلى نيويورك، لكنه صار يستورد "جنوده" وحرسه الخاص من صقلية بعد أن صار "الدون كورليوني" زعيم المافيا الشهير في نيويورك ـ العاصمة.

هذا هو الأمر بتبسيط شديد، وإن كان دقيقاً على ما أرى، وفيه يستطاع قول كثير عن أخطار وعن كيفية إعادة تفكيك هذا الجهاز الأمني ونزع فتيل خوفه على مصدر رزقه وغده، وهو ما يجعله شرساً، ومعالجة وضع العمالة الزائدة الذي حوّل هذه "القوى الأمنية" إلى مافيا خائفة على نفسها ومرتبطة بزعيمها أو زعمائها. وببساطة يمكن تفكيكها كما فكك قبلها الحرس القومي والكتائب العمالية وسرايا الدفاع. لكن ينبغي أن نلاحظ أن تركيب قوات الأمن السورية الجهوي والطائفي والزبائني والعصبوي هو الذي أبدى وجهاً طائفياً للنظام وليس سير ومجمل سياساته الدولية والعربية والإقليمية والداخلية وسياساته الاقتصادية والفكرية. فالديكتاتور ـ النابليون ـ الأتاتورك لا يهتم بالدين والطائفة إلا بمقدار ما تخدم سلطته، حسب اعتراف الجنرال نابليون بونابرت مؤسس ظاهرة "الضباط في الحكم" الحديث، الذي أوردناه في "إضاءات" هذا الكتاب. هنا لا أستطيع إلا أن أروي طرفة وقعت معي:

منذ عشر سنوات تقريباً، سألني صديقي المخرج السينمائي رياض شيّا:

ـ ماذا كان سيحدث لو استلم سليم حاطوم السلطة بدل حافظ الأسد؟!

أجبت ضاحكاً:

ــ لا شيء مهم.. الفرق الوحيد أن أكثر شباب السويداء وحوران كانوا سيعملون في المخابرات بدل الذهاب إلى أمريكا اللاتينية والخليج وليبيا، وأكثر شباب الساحل كانوا سيذهبون إلى أمريكا اللاتينية والخليج وليبيا، بدل المجيء إلى العمل في المخابرات في دمشق.

لكن المشكلة الآن أن الضابط الديكتاتور ـ الأتاتورك البعثي حافظ الأسد مضى، وبقي مكانه قوى الأمن التي أنشأها، وهي الديكتاتور الحقيقي، الذي يعمل لحساب القوى الاقتصادية الجديدة، وليس في سبيل أتاتوركية علمانية مثل مصطفى أتاتورك. وهنا بدت الديكتاتورية مجرد عنف وإرهاب عاريين.

كان حلم الديكتاتوريين ـ الضباط الأتاتوركيين من حسني الزعيم إلى حافظ الأسد، مروراً بالشيشكلي وجمال عبد الناصر وأمثالهم من كبار الضباط الديكتاتوريين ـ الأتاتوركيين وصغارهم، محاولة تقليد نموذج مصطفى كمال أتاتورك وتجربته في بناء الدولة الوطنية القوية، لكنهم لم ينجحوا إلا في قيادة بلدانهم نحو الكارثة على ما آلت إليه الأمور. وللتدليل على ذلك، قارنوا ما بين تركيا ومصر وسورية، ما بين مصطفى أتاتورك وجمال عبد الناصر أو حافظ الأسد.

خلاصة القول:

كانت الأتاتوركية العربية، أو محاولتها على الأصح، طبعة ثانية للأتاتوركية التركية، ومثل لكل طبعة ثانية، كانت طبعتنا العربية مزيفة، بل كانت مسخرة، على حد تعبير كارل ماركس الشهير. وقد أثبتت الفترة السابقة خطل هذا الحلم أو المشروع الديكتاتوري ـ الأتاتوركي وانسداد أفقه.

لا بد للشعوب العربية، ولسورية تحديداً، أن تتخلى عن حلمها الديكتاتوري الأتاتوركي العسكري، مثلما يجب أن تتخلى عن حلم "الدولة الإسلامية أو الدينية" كبديل للأتاتوركية، وتبدأ رحلة بناء ذاتها ومجتمعاتها السياسية الديمقراطية العلمانية الجديدة بقواها الشعبية المدنية، وعسى أن الخطوات الأولى بدأت عام 2011. وهذا هو معنى ومضمون وهدف ما اصطلح على تسميته بـ "الربيع العربي 2011"، على الرغم من كل مخاوف المستقبل، يبقى الأمل مضيئاً.

فلنأمل.

وقبل ذلك: فلنعمل في سبيل:

سورية دولة ديمقراطية علمانية دون أية تحديدات فئوية أو تحديدات عرقية ومذهبية ضيقة أخرى.

-6-

## "التاريخ... أو ما لا يمكن استئناسه"

"التا
ريخ
ليس
حيواناً
يمكن
استئناسه
"

انطونيو تابوكي.
من رواية:
بيريرا
يدعي

يبدو أن أهم درس يعلمنا إياه التاريخ هو: لا أحد يتعلم من التاريخ، خصوصاً الحكام، والحكام العرب منهم تحديداً. ربما لهذا قامت وتقوم الثورات، أمس واليوم وغداً.

ولكن التاريخ ليس هو الماضي فقط، فالتاريخ هو جريان الزمن واستمراريته وتتالي الفعل الإنساني، بل ومسيرته حتى لحظته الراهنة، أو الحاضرة المتحركة نحو المستقبل، وبهذا المعنى فالتاريخ هو الحاضر، أو أن الحاضر هو خلاصة التاريخ ولحظته المكثفة، إنه التاريخ، الحاضر المعاش، الراهن. التاريخ

إذن قريب منا وحاضر بيننا وفينا. لكن كثيرين، على ما يبدو لا يريدون رؤية أو حضور هذا "الضيف الثقيل" أو المزعج.

تاريخ وحالة مجتمعات الشعوب العربية الراهنة، بل وأسباب ثوراتها وانتفاضاتها تكاد تكون متشابهة، من تونس إلى مصر إلى ليبيا إلى تونس إلى سورية مؤخراً، ومع هذا لا يريد كثيرون ولا سيما الحكام العرب، أخذ التواريخ والوقائع والتجارب والحقائق و"الأسباب الموجبة" بعين الاعتبار، فكل حاكم عربي، و لا يمكن استثناء واحد منهم، يظن بل ويتصرف أن دولته - إقطاعيته هي "خاص" بكل معاني ودلالات معنى كلمة "خاص" هذه.

لا أحد ممن بيده أجهزة السلطة يتذكر أن بلده، وليكن سورية مثلاً، أو غيرها هو جزء من الأمة أو العالم العربي، على الرغم من القومية والعروبة "المعلنتين" عند جميعهم تقريباً، وأن مشاعر شعوبهم وأفكارها ومطامحها، هي متقاربة إن لم نقل واحدة، بغض النظر أو بالإضافة إلى الظروف "الخاصة" وبالتالي فإن رياح التغيير عندما تهب في أية زاوية من زوايا البلدان والثقافة العربية، فإنها ستمتد إلى مختلف الزوايا، فرياح تونس ومصر ستصل إلى سورية، مع أن من يعرف تاريخ المنطقة العربية اجتماعياً وثقافياً وسياسياً، وتاريخ سورية الحديث تحديداً، قد يستغرب لماذا لم تنطلق رياح التغيير هذه من سورية قبل غيرها. ذلك أن سورية أو شعبها كان خلال فترة طويلة ومؤسسة من القرن العشرين السابق رائداً في حمل الأفكار والتطلعات والشعارات والحركات التغييرية التي عرفتها المنطقة العربية خلال هذا التاريخ، و إن آل الأمر إلى ما آل إليه لاحقاً.

لكن ما حدث قد حدث، ويبدو أن مرحلة تاريخية، سياسية، قد انتهت في المنطقة العربية، وهي مرحلة لا تستحق الأسف على فراقها، مثلما يبدو أن هناك مرحلة جديدة سوف تبدأ، وهي في الأفق بكل احتمالاتها سلباً أو إيجاباً، فالمستقبل، والتاريخ أفق احتمالات مفتوحة، والذي انتهى سياسياً على الأغلب هو ما سمي بـ "مرحلة حركة التحرر الوطني" بسياساتها وأحزابها التي أوصلت الأمور إلى ما هي عليه. وما أتى أو قد يأتي هو مرحلة التحرر الاجتماعي الإنساني والفردي، مرحلة مواكبة العصر الحديث والدخول فيه، والعصر الحديث منذ الثورة الفرنسية عالمياً هو عصر الحريات والديمقراطيات وثوراتها، ورياح التغيير الديمقراطي، وإن تأخرت، فإنها أتت أو فتح الباب لقدومها على الأقل. وقد لا يكون المرء مبالغاً في التفاؤل عندما يقول إن مرحلة الانقلاب العسكري والحزب الواحد والزعيم الواحد الخالد، والجبهة الوطنية التقدمية "على صوريتها" أو مرحلة "إلى الأبد" باختصار قد انتهت، وأن هناك بداية لتكون مجتمع مدني جديد ووعي اجتماعي سياسي جديد، بل وعقد اجتماعي وفكر سياسي جديدين.

وهذا هو معنى تهدم "حاجز الخوف" أو جداره جدار برلين العرب، المتهدم على خطا مسير المواطنين في شوارع المدن العربية ومنها سورية. و بد هي أن من جملة ما انتهى أو هدم كان، أو هو موضوعه "التوريث" في الحكم، وهي "الهدية غير الطيبة" التي قدمتها السلطة السورية إلى السلطات العربية الشقيقة إضافة إلى هدية غير طيبة أخرى قدمتها التجربة السياسية السورية ألا وهي الانقلاب العسكري. فكان أن دفعت الشعوب العربية مع سورية ثمن هاتين الهديتين المشؤومتين، وهذا هو

الجانب السلبي لريادة سورية في التاريخ والثقافة العربيين في القرن العشرين والتي سبق التنويه بها. على أن هناك جانباً إيجابياً وهاماً آخر أدت إليه هذه الانتفاضات، الثورات، الحركات وسمها ما شئت إذ "لا مشاحة في الأسماء" كما يقول الأزهريون، وهذا الجانب هو إعادة تسييس الشعوب العربية ولا سيما القطاعات الشبابية منها بعد أن كادت "أحزاب حركة التحرر الوطني" وسلطاتها تطفئ كل حس أو تفكير سياسي لدى المواطن، مما أفقده مواطنيته، واعتبرت نفسها القائد والمالك والبديل عبر ممثلها "القائد" الذي أقصاها هي بدوره. وهكذا نرى الآن انهيار الحزب الحاكم في تونس والحزب الحاكم في مصر بعد انهيار القائد، وكيف نُسي وتجوهل حزب البعث في سورية. وهكذا نرى ببساطة كيف أدى مفهوم الحزب الواحد إلى مفهوم "الزعيم الواحد" وهذا ما حدث في التجربة الشيوعية كما نعلم. وهذا سبب ما يطالب به السوريون اليوم: إلغاء المادة الثامنة من الدستور التي تنص على "حزب قائد" أدى إلى "قائد إلى الأبد" وهذا أيضاً سبب لما يطالب به السوريون اليوم من تحديد مدة ولاية رئيس الجمهورية، فالدولة السورية جمهورية وليست ملكية، على ما يقول الدستور السوري.

أمر آخر لا بد من التطرق إليه في جوانب هذه الحركات الشعبية في المنطقة العربية، وهي أنها أحيت الأمل والروح بل والعزيمة والثقة بالنفس وجدوى العمر والحياة بالنسبة للقطاعات الكهلة وكبيرة العمر، وهي القطاعات التي عاشت حياتها في الأحلام المنكسرة، في القهر والاستبداد والتهميش والإذلال خلال الأربعين عاماً الماضية، فالعمر لم يذهب هباءً إذن، وها هو الحلم يورق أو يزهر من جديد. ومن هنا يمكن القول إن "جيل الكهول"

أي الجيل الذي تمسك بقضية "النهضة العربية" و"استمراريتها" في أحلك الظروف وحتى عندما وصلت الحالة قاع اليأس، يستطيع اليوم أن يرسم من رماد عمره وردة يقدمها للأجيال الجديدة وهو يشعر ويقول إنه حافظ على الأمل جمرة في الرماد وها هي الجمرة تتقد وأنه حافظ على الحلم مشرقاً والراية مرفوعة، وأعني حلم وراية الحرية والعقلانية والديمقراطية والعدالة والمساواة والعلمانية والمجتمع المدني، وهذه كلها كما نعرف هي أفكار ومشروع النهضة العربية التي بدأت منذ أواسط القرن التاسع عشر، وهي أفكار ومشروع اعتقد كثيرون أنها أخفقت أو أجهضت، وفي كثير من الأحوال تنصل كثيرون منها بل أدانوها.

الجديد أيضاً أن هذه الأفكار وهذا المشروع بعد أن كانت أفكار نخب متأثرة بالغرب والحداثة، حتى عندما رفعتها بعض الأحزاب، صارت اليوم، عبر المناداة بها في انتفاضات الشارع العربي، أحلاماً ومشروعاً وشعارات ومطالب وطنية عامة بالنسبة للشعوب العربية. وبهذا المعنى فإن أفكار النهضة العربية والثورة الفرنسية قبلها وصلت "أخيراً" إلى هدفها وحاملها الحقيقي: الناس العاديين، الشعوب، البشر في حياتهم اليومية، بغض النظر عن هذا الخيار السياسي أو ذاك، أو هذا "المعتقد" أو غيره، وهذا هو "على الأغلب" معنى أو أحد معاني ظهور الميدان العام والشارع مكاناً للتجمع وإعلان الآراء والمطالب والشعارات بل والأحلام في المدن والبلدات العربية التي أعيد تكوينها خلال الحقبة المنصرمة من القرن العشرين.

لكن، ولكي لا نكون مسرفين في الحماسة والتفاؤل، ربما ينبغي التذكير بأن ما حصل ويحصل هو من الناحية الفكرية والاجتماعية، وربما السياسية، بداية انتقال من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، أي هو انتقال من مرحلة استبداد الأسر الحاكمة والحاكم وبنى المجتمع القديمة إلى عصر الديمقراطيات الحديثة وحرياتها والى المجتمع السياسي، أو المجتمع المدني. ويبدو أن الوصول إلى القرن الحادي والعشرين قد يستغرق وقتاً وعقبات وربما "ثورات مضادة" وأكلافاً كثيرة فثمة عقبات وعقبات، ولكن الأفق انفتح وثمة مرحلة انتهت أو قاربت الانتهاء، بينما مرحلة جديدة بدأت أو شرعت في البدء، وربما هو "إعصار" أو قوة طبيعية، أو تاريخ من النوع الذي لا يمكن تدجينه.

هذا كلام تاريخي عام عما جرى ويجري في المنطقة العربية، لكنه لا يعفي صاحبه، كمواطن سوري، وككاتب من الحديث عما يجري في سورية في هذه الآونة:

أعتقد أن الهام والواضح قد قاله غالب الذين تناولوا الموضوع عبر الإعلام المقروء والمرئي، خلال الأحداث. وبهذا فإن تكراره لا يعدو كونه مجرد إعلان موقف لصاحبه أكثر من هو إتيان بجديد. ومن هذا المنطلق فإن المطالب التي أعلنها سواء الشارع السوري أو المثقفون والكتاب الذين عبروا عن رأيهم، والتي تتمحور حول إلغاء قانون الطوارئ حقاً وليس شكلاً وضمان الحريات العامة بكل أنواعها المضمونة في شرعة حقوق الإنسان العالمية وإلغاء المادة الثامنة من الدستور وتحديد مدة ولاية رئيس الجمهورية وأمثالها إنما هي، في رأي كاتب هذه السطور،

مطالب وطنية عامة بغير تحقيقها سيبقى مستقبل سورية وحاضرها مقامرة، والمقامرة في الأوطان والأرواح ليست بريئة، وليست مستحبة أبداً، والأهم: ليست رابحة لأحد على الإطلاق.

## -7-
## تدريب على الحياة العادية 2011\6\27

داخل قاعة فندق سميراميس في دمشق اجتمع "مواطنون" أو أشخاص يجمعهم هدف مشترك، وخارج القاعة وقف أناس آخرون يجمعهم هدف مشترك آخر معارض للموجودين في الداخل يعلنون خلافهم ويحملون لافتاتهم وصورهم المفضلة. قامت شرطة السير بالوقوف بين المعترضين في الشارع وبين نهر السيارات في الشارع حتى لا تعاق حركة المرور، بينما وعلى مقربة وقفت قوات أمن مستعدة حتى لا يحدث اشتباك بين الفريقين.

قد يبدو هذا مظهراً عادياً للمراقب الخارجي، لكنه بالنسبة لسورية التي لم تشهد هذا المنظر، منذ خمسين عاماً تقريباً، إلا في التلفزيونات، كان مشهداً جديداً، وأكثر من جديد، كان حلماً، ليس حلماً خيالياً متعذر التحقيق، بل حلم عملت في سبيله القوى والأفراد والمثقفون الديمقراطيون منذ وقت طويل وطويل.

لكنه ليس مجرد حلم، إنه وضع الأمور في نصابها. أناس لهم رأي يعلنونه وأناس آخرون يعبرون عن رأيهم. رجل المرور يقوم بدوره الذي يتقاضى عليه راتبه، ورجل الشرطة أو الأمن يفعل الشيء نفسه، فيأخذ راتبه على حماية الأمن لا على خرقه، وعلى حماية المواطن لا على الاعتداء عليه أو إهانته. ما الجديد في الأمر؟؟؟

بالنسبة لسورية ثمة جديد، ثمة تغيير هائل. رجل المعارضة استطاع أن يقول رأيه الذي يراه بجرأة وصراحة دون خوف

الاعتقال أو دون اعتقال، معلناً بذلك أن خمسة عقود من الكبت والاضطهاد لم تقتل بذرة الحياة في النفس السورية. ورجل الرأي الآخر قال رأيه كما يريد، وشرطي المرور قام بواجبه دون أن يرتشي من أحد، أما رجل الأمن فلم يستخدم قبضته أو قدمه، أو عصاه أو مسدسه هذه المرة، بل قام بعمله الحقيقي.

هل هذا شيء غير طبيعي؟؟ لا إنه طبيعي، ولكن العادي الطبيعي هو الجديد والمذهل هذه المرة، فالحلم في مجتمعات الاستبداد، أو المجتمعات التي اعتادت سلطات الاستبداد على الأصح، هو أن يكون المرء عادياً، وأن تكون الحياة عادية.

الطريف اليومي والعادي والطبيعي أصبح "خروجاً" على ما ظن الناس والسلطة أنه العادي واليومي، بل والأبدي، وهل من شيء غير أبدي في أنظمة الاستبداد وأفكاره من "الرسالة الخالدة" إلى "الرئيس الأبدي" إلى "المواطن المطيع إلى الأبد".

هذا عن المظاهر الخارجية لما حدث في القاعة وداخلها. أما ما حدث داخل القاعة فكان أغرب، مرة أخرى كان أمراً عادياً، لكنه جديد، وإن كان يجب أن يكون عادياً ومألوفاً، كان العادي الذي يخرج عن العادي.

جمع من الناس السياسيين يدخلون ويجلسون على طاولات دون هرج وهتافات، دون "يسقط ويعيش" أو "بالروح وبالدم". يقوم أحدهم إلى المنصة، فيلقي كلمة في دقيقتين أو ثلاث دون أن يقاطعه أحد إلا مدير الجلسة لتنبيهه إلى الوقت، مع أن كل واحد من الحاضرين يستطيع ويتمنى أن يقف ساعتين على المنصة، بل ولديه ما يقوله، وفي النهاية وعند إصدار البيان الختامي يحدث خلاف حول بعض المواد، فتقر بنود وترفض أخرى، ويضاف هنا بند ويحذف هناك آخر بالتصويت، وأخيراً يدفع كل حاضر

مبلغاً وقدره 500 ل.س للمساهمة في أجور المكان الخاص، أي لا أحد استخدم المكان العام أو الخاص لفائدته الشخصية أو فائدة جماعته السياسية أو سلطته. وأخيراً، وكل على هواه، انسحب من الاجتماع من لم يعجبه سير الأمور، أو رفض الحضور أصلاً. كل يأخذ حقه أو يؤدي واجبه، أو يعمل ما يقوله له ضميره أو تفكيره.

ببساطة لقد كان ما حدث في دمشق يوم 27 حزيران 2011، أياً كانت التوصيات التي اتخذت، وأياً كان الموقف منها، تمريناً أولياً طريفاً وناجحاً على الديمقراطية، وهو تمرين أو تدريب لا يسع المرء إلا أن يتمنى لسورية، سورية الأفكار الجديدة – تاريخياً - في المنطقة العربية، أن يصبح، مع المران والتدريب والمواظبة، عادة وأسلوب حياة وسياسة وأسلوب حوار وعيش واجتماع مشترك.

مرة أخرى، كان شيئاً جديداً أن يبدو الترتيب اليومي وكأنه خروج على اليومي، لكنها كانت مأساة أن يبدو اليومي والعادي خلال عقود حلماً شبه مستحيل أو معذبا بل كان حلما قاتلا أحياناً.

لهذا لا بد من التسجيل:

في 27 حزيران 2011 حدث في سورية أمر جديد.

نتمنى أيضاً أن يضيف المستقبل، أو التاريخ، أن الأمر الجديد الذي حدث في هذا اليوم كان بداية تحول إلى أمر عادي ومألوف وطبيعي في الحياة السياسية والاجتماعية السورية، مهما تكن الصعوبات والمخاطر، وأن يكون ما حدث في 27حزيران 2011 قد صار قاعدة وليس مجرد استثناء دعت إليه ظروف ضاغطة ومؤقتة.

